
دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

الرسالة ٢٣٠

النظرية القصدية في المعنى عند جرايس

د. صلاح إسماعيل
قسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة
جمهورية مصر العربية

حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية - الحولية الخامسة والعشرون - ١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

المؤلف:

د. صلاح إسماعيل

- حصل على الدكتوراه عن فلسفة اللغة والمنطق عند كواين من جامعة القاهرة عام ١٩٩٤.
- أستاذ مساعد بقسم الفلسفة - كلية الآداب - جامعة القاهرة. التخصص الدقيق: الفلسفة المعاصرة.
- الاهتمامات البحثية: فلسفة اللغة، المنطق وفلسفته، الابستمولوجيا وفلسفة العلم، فلسفة العقل.

الإنتاج العلمي:

أولاً - الكتب:

١ - التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

٢ - فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥.

٣ - قضايا إشكالية في الفكر الإسلامي المعاصر (بالاشتراك)، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٧.

٤ - بناء المفاهيم: دراسة معرفية ونماذج تطبيقية (بالاشتراك) في مجلدين، القاهرة: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، ١٩٩٨.

٥ - نظرية المعرفة المعاصرة، الطبعة الأولى، القاهرة: الدار المصرية السعودية، ٢٠٠٥م.

ثانياً - البحوث:

١ - مفهوم الصدق عند ديفيدسون، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد السادس والخمسون، السنة الرابعة عشرة، صيف ١٩٩٦، ص ٢٠٦-٢٥٧.

٢ - فلسفة العقل عند فتجنشتين، مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة - المجلد ٥٦، العدد ٤، أكتوبر ١٩٩٦، ص ٣٩ - ٩٩.

٣ - الاتجاهات المعاصرة في فلسفة اللغة، مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد ٨٣، السنة السابعة عشرة (١) شتاء ١٩٩٦، ص ٥٣ - ٧٧.

٤ - مفهوم المعرفة في الفلسفة المعاصرة، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٥٨، عدد ٤ أكتوبر ١٩٩٨، ص ١٠١ - ١٥٨.

٥ - نظريات التسويغ المعرفي، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، جامعة الكويت، العدد ٦٩، السنة الثانية عشرة - شتاء ٢٠٠٠، ص ١١٠ - ١٥١.

٦ - جون سيرل ومشكلة الوعي، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد ٦٠ عدد ٤، أكتوبر ٢٠٠٠، ص ٢٨٥ - ٣٣٠.

٧ - الابستمولوجيا الطبيعية، حوليات الآداب والعلوم الاجتماعية، الحولية ٢٢، الرسالة ١٨٣، ٢٠٠٢م، جامعة الكويت.

٨ - هل العقل برنامج كمبيوتر، في كتاب الفلسفة التطبيقية تحرير أ.د. مصطفى النشار، الطبعة الأولى، القاهرة، الدار المصرية السعودية ٢٠٠٥م.

المحتوى

الملخـص

إن البحث الفلسفي في مشكلة المعنى قديم قدم الفلسفة. وهناك طريقتان لدراسة المعنى، ترتبط الأولى بالنظريات الصورية في المعنى التي اقترحها فريجه، وفتجنشتين المبكر، وكواين، وديفيدسون، ودميت. وترتبط الثانية بنظريات الاستعمال في المعنى التي اقترحها فتجنشتين المتأخر، وأوستن، وجرايس وستراوسون، وسيرل. تهتم النظريات الصورية بالبنية الصورية للغة والعلاقات المتبادلة بين الجمل. وتضع نظريات الاستعمال توكيداً أساسياً على المتكلمين وما يفعلونه في تقريرهم عن المعنى. وبول جرايس (١٩١٣ – ١٩٨٨) الفيلسوف الإنجليزي – هو الفيلسوف الذي أعطى المتكلمين ومقاصدهم مكانة محورية عند تفسير المعنى. ويمكن النظر إلى النظرية القصدية في المعنى عند جرايس على أنها تأتي على مرحلتين: تهدف المرحلة الأولى إلى تحليل مفهوم المعنى لدى المتكلم. وتسعى الثانية إلى استعمال مفهوم المعنى لدى المتكلم، بالإضافة إلى فكرة المواضعة، كأساس لنظرية في المعنى اللغوي. ويسعى هذا البحث إلى تحقيق الأهداف الآتية:

١ – تقديم فحص نقدي لنظرية جرايس في المعنى.

٢ – مناقشة الاعتراضات المهمة على هذه النظرية والتعديلات التي اقترحها الفلاسفة الذين راموا تنقيحها وتعديلها مثل ستراسون، وسيرل، وغيرهما.

٣ – صياغة العلاقات المهمة بين النظرية القصدية (في علم الدلالة) ونظرية الاقتضاء التخاطبي (في علم الاستعمال). والرأي عندي أن النظريتين تؤيد إحداهما الأخرى، وتصلح الأولى أساساً للثانية، أو إن شئت قل: إن الثانية جزء من الأولى.

المقدمة

تقع مشكلة المعنى من فلسفة القرن العشرين ومستهل القرن الحادي والعشرين عند حجر الأساس، يستوي في ذلك التقليد التحليلي السائد في العالم الناطق بالإنجليزية والتقليد الأوروبي السائد في أوروبا باستثناء بريطانيا. وعندما أقول إن المعنى اللغوي يقع في صميم الصميم من الفلسفة المعاصرة، فلست أصدر في ذلك عن رأي أذهب إليه، وإنما أصدر عن حقيقة واقعة ندركها بوضوح في كتابات الفلاسفة الرواد في عصرنا. انظر مثلاً إلى فرانز برنتانو (١٨٣٨ – ١٩١٧) تجد أنه قد سعى إلى تفسير كيف تدور الأفكار، وهي أحداث عقلية، حول موضوعات خارج العقل، ثم انظر إلى جوتلوب فريجه (١٨٤٨ – ١٩٢٥) تجد أن المشكلة التي أرقته هي معالجة الاختلاف في المعنى بين (أ هي جـ) و (ب هي جـ) الذي يوجد حتى عندما يشير (أ) و (ب) إلى الشيء نفسه.[1] أما رودلف كارناب (١٨٩١ – ١٩٧٠) فقد ألقى على نفسه سؤالا: كيف يمكن أن يوجد "صدق بمقتضى المعنى فقط"؟ وأتبعه بسؤال آخر: كيف يمكن أن توجد معرفة أولية؟ وأظهرت إجابته على هذين السؤالين أن الابستمولوجيا ترتبط ارتباطاً حميماً بنظرية المعنى. ولكن كواين (١٩٠٨ – ٢٠٠٠) لم يسلك طريقة معلّمه وصديقه كارناب، وإنما بحث على أساس موضوعي نعتمد عليه عندما ننسب إلى تعبيرات معينة المعنى نفسه، وانتهى إلى ما أسماه المعنى المعرفي cognitive meaning. وجاء دونالد ديفيدسون (١٩١٧ – ٢٠٠٣) ليبين كيف تتحدد معاني الجمل عن طريق معاني كلماتها. ولو أنك تابعت النظر في مؤلفات بقية أئمة الفلسفة في وقتنا الحاضر، لوجدت أن قضية المعنى قد شغلتها واستأثرت بها حتى وقعت منها في مكان الصدر والمحراب.

ولست أعرف فيلسوفاً معاصراً كرس جلّ جهده الفلسفي لمفهوم المعنى، وما يدور في فلكه من مفاهيم أخرى، مثلما فعل الفيلسوف الإنجليزي بول جرايس Paul Grice (١٩١٣ – ١٩٨٨) إلى درجة أننا نستطيع أن نسميه بحق "فيلسوف

المعنى". وأعتقد أن هذا الوصف يصوره أصدق تصوير وأدقه. وهو نفسه يقول عن هذا الجانب من فلسفته: "لقد سبب لي كثيراً من القلق، وأحدث أيضاً توقداً أكثر (من أي جانب آخر)"[٢]. ومهما تقرأ من فلسفة جرايس، ومهما يكن الموضوع الذي يعالجه، فسترى دائماً تحليله للمعنى شائعاً فيما يعالج، منبثّاً فيه كما ينبثّ الماء في الغصن؛ ولا غرو بعد ذلك أن أقول عنه إنه "فيلسوف قنفذ"، إذا جاز لي أن أستعمل الاستعارة الجميلة التي ابتكرها أشعيا برلين (١٩٠٩ – ١٩٩٧).

لقد أورد برلين في كتابه "المفكرون الروس" عام ١٩٧٨ (في فصل بعنوان "القنفذ والثعلب"، أعيد نشره ضمن مقالات مختارة من كتابات برلين بعنوان "الدراسة الملائمة للجنس البشري" عام ١٩٩٨) بيتاً من الشعر الإغريقي يقول: "يعرف الثعلب أشياء كثيرة، ولكن القنفذ يعرف شيئاً واحداً كبيراً". وتذهب الآراء في التفسير الصحيح لهذه الكلمات مذاهب شتّى، ولكن برلين يرى أننا إذا أخذناها بطريقة مجازية، كان في وسعنا أن نفصل بين نوعين من الكتاب والمفكرين، وربما الكائنات البشرية بصفة عامة: القنافذ في ناحية، والثعالب في ناحية أخرى. فأما القنافذ "فهم الذين يربطون كلّ شيء برؤية واحدة أساسية، وبنسق واحد، وفي حدوده يفهمون ويفكرون ويشعرون ... (وأما الثعالب) فهم الذين يبحثون عن غايات كثيرة، لا ترتبط فيما بينها في غالب الأمر، بل وربما تكون متناقضة، وترتبط فقط – إذا ارتبطت على الإطلاق – بطريقة ما واقعية، وبسبب سيكولوجي أو فسيولوجي، ولا ترتبط بمبدأ أخلاقي أو جمالي"[٣]. وأنت ترى إذن أن المفكرين القنافذ يسترشدون بفكرة أساسية واحدة، ثم يتعمقون فيها، وينطوون عليها كما تنطوي القنافذ على نفسها. وأما المفكرون الثعالب فهم الذين يستكشفون أفكاراً كثيرة متنوعة بينما يجوبون في فجاج الفكر كما تجوب الثعالب في فجاج الأرض. صحيح أن جرايس قد تميز من بعض رفاقه في أكسفورد الذين وقعوا في شراك اللغة، وذلك عندما وسع من دائرة اهتماماته الفلسفية شيئاً ما، ولكن انشغاله طوال حياته بمفهوم المعنى يجعلنا ندخله دون أن نجاوز الحق، في زمرة الفلاسفة القنافذ. وهو في ذلك يختلف عن

الفيلسوف الإنجليزي المعاصر مايكل دميت Michael Dummett (١٩٢٥ –)، الحاصل على لقب سير، الذي حفل بالمعنى احتفالاً عظيماً جداً، ولكنه وصف نفسه في شيء من السعادة على أنه ثعلب" ينطلق ليشم هنا وهناك بين أشياء كثيرة يعرف القليل عن كل واحد منها"(٤).

وأردت في هذا البحث أن أحقق جملة من الأهداف: أولاً – توضيح الفكرة الأساسية في النظرية القصدية، وهي أن جرايس أعطى المتكلمين ومقاصدهم دوراً رئيساً في فهم المعنى، وبيان كيفية استخدام هذا المعنى لدى المتكلم باعتباره الأساس الذي يقوم عليه تقرير المعنى اللغوي (أو معنى الجملة).

ثانياً – مناقشة الاعتراضات الأساسية على تحليل جرايس للمعنى، وبيان النظريات المتنافسة مع نظريته.

ثالثاً – إعادة بناء نظرية جرايس بحيث تبدو كاملة بعد الإسهامات التي قدمها أنصاره لسد نقائصها وبخاصة في جانب الإصلاح.

رابعاً – توضيح العلاقة بين النظرية القصدية في المعنى ونظرية الاقتضاء التخاطبي القائمة على مبادئ التخاطب؛ وتتمثل هذه العلاقة، في رأينا، في أن النظرية الثانية فرع من الأولى، وهذا يعني أن في فلسفة جرايس يخطئ تماما من ظنّ أن جرايس قدم نظريتين منفصلتين تمام الانفصال. وأنا في محاولة تحقيق هذه الأهداف أتمثل نظرية جرايس في لطائف أفكارها ودقائق عناصرها، وأعبّر عن مزاياها في غير إسراف، وأصور نقائصها في غير إجحاف، وأسعى بها إلى شيء من الاكتمال.

١ - إسهامات جرايس وعلاقته بفلسفة اللغة العادية

إذا شئنا أن نفهم نظرية جرايس في المعنى فهماً دقيقاً، فمن الضروري أن نلقي نظرة عامة على تصوره لطبيعة الفلسفة، ونوضح إسهاماته في فلسفة اللغة بصفة عامة، ونبين مكانته في التيار الفلسفي الذي ينتمي إليه داخل الفلسفة التحليلية. وهذه الجوانب وغيرها خليقة أن تذلل لنا الطريق إلى فهم جرايس التي وصفت بأنها عسيرة وعرة ملتوية.

ولد هربرت بول جرايس في برمنجهام بإنجلترا في الخامس عشر من عام ١٩١٣، وعمل أستاذاً في جامعة أكسفورد من عام ١٩٣٨ حتى عام ١٩٦٧ باستثناء الفترة التي قضاها في الخدمة العسكرية خلال الحرب العالمية الثانية. وفي عام ١٩٦٧ انتقل إلى جامعة كاليفورنيا – بيركلي، وظل يعمل بها حتى بلغ سن التقاعد في عام ١٩٧٩، ولكنه ظل يواصل التدريس حتى عام ١٩٨٦، ووافته المنية في بيركلي سنة ١٩٨٨. واشتهر جرايس بإسهاماته في فلسفة اللغة وبخاصة تحليله للمعنى لدى المتكلم speakers meaning أو النظرية القصدية في المعنى كما أسميها، ومشروع علم الدلالة القائم على القصد intention - based semantics على حدّ تعبير ستيفن شيفر، ونظرية الاقتضاء التخاطبي conversational implicature، زد على ذلك إسهامه في فلسفة الأخلاق التي حاول أن يقدم فيها أساساً ميتافيزيقياً للقيمة، وعمله في علم النفس الأخلاقي، وعلم النفس الفلسفي. وظهرت كتابات جرايس في المعنى على هيئة مقالات نشرت في المجلات الفلسفية الرائدة على مدار ما يزيد على ثلاثين سنة، وجمعت هذه المقالات في كتاب "دراسات في طريق الكلمات" عام ١٩٨٩، ونشر له كتاب في الأخلاق بعنوان "مفهوم القيمة" عام ١٩٩١، وظهر له أخيراً كتاب بعنوان "جوانب العقل" عام ٢٠٠١. ويقول محرر الكتاب الأخير ريتشارد وارنر إن جرايس عمل في هذا الكتاب بين الفينة والفينة على الأقل من سنة ١٩٧٥ حتى نهاية حياته في

عام ١٩٨٨. وتؤكد آراؤه في الاستدلال العقلي على نظريته في المعنى بالإضافة إلى منهجه العام في معالجة مشكلات الفلسفة(٥).

ولعل من الأفضل أن نشير إشارة سريعة إلى الفكرة الجوهرية في مؤلفات جرايس، ولم نورد هنا معظم المقالات التي جمعت في كتبه:

١ – "**الهوية الشخصية**" عام ١٩٤١ مقال يقدم تعديلاً لنظرية لوك في الهوية الشخصية القائمة على الذاكرة.

٢ – "**في الدفاع عن العقيدة**" عام ١٩٥٦ (بالاشتراك مع ستراوسون) والعقيدة التي يدافع عنها جرايس وستراوسون هي التمييز بين العبارات (أو الحقائق) التحليلية والتركيبية، وكان هذا المقال يمثل أحد المعالم الأساسية في الفلسفة التحليلية المعاصرة، وبخاصة عند مدرسة الوضعية المنطقية، وهو تمييز انتقده كواين نقداً شديداً في مقالته "عقيدتان للتجريبية". وكان نقد كواين عنيفاً إلى درجة أنه انبرى للرد عليه عدد كبير من الفلاسفة والباحثين، ولم يضارعه في أهميته الفلسفية وأصالته الفكرية سوى مقال جرايس وستراوسون.

٣ – "**الأسماء الفارغة**" سنة ١٩٦٩ ويقدم فيه جرايس دفاعاً عن نظرية الأوصاف عند رسل، ويرفض الاتهام القائل إن الأوصاف المحددة غامضة بين تفسير رسل والتفسير المعتمد على الاستعمال الإشاري، وسوف نشير إلى هذه النقطة فيما بعد.

٤ – "**محاضرات في اللغة والواقع**" عام ١٩٧١، وهي محاضرات ألقيت في جامعة Illinois ولم ينشر من هذه المحاضرات سوى محاضرة بعنوان "الافتراض المسبق والاقتضاء التخاطبي" في كتاب "دراسات في طريق الكلمات".

٥ – "**القصد واللايقين**" عام ١٩٧١ وفي هذا المقال يعرض جرايس أفكاره في القصد والإرادة والاعتقاد.

٦ – "**المنطق والتخاطب**" عام ١٩٧٥، وهذا البحث يناقش الاقتضاء التخاطبي، وهو في الأصل محاضرات جرايس المعروفة باسم محاضرات وليم جيمس

التي ألقاها في جامعة هارفارد عام ١٩٦٧، ولم ينشر كاملاً حتى عام ١٩٧٥، وأعيد نشره في كتاب "دراسات في طريق الكلمات".

٧ – "**محاضرات عمانوئيل كانط**" سنة ١٩٧٧ ألقيت في جامعة ستانفورد، ونقحت وألقيت كمحاضرات جون لوك في جامعة أكسفورد بعنوان "جوانب العقل"، ونشرت أخيراً في كتاب يحمل هذا العنوان الأخير.

٨ – "**ديفيدسون في ضعف الإرادة**" عام ١٩٨٥ (مقال بالاشتراك مع باكر) وهو تحليل لآراء ديفيدسون في ضعف الإرادة، ونقد لها أيضاً.

٩ – "**الأفعال والأحداث**" ويقدم هذا المقال مناقشة لأفكار ديفيدسون في الأفعال والأحداث، ولا يكتفي جرايس بالمناقشة والنقد، وإنما يقدم وجهة نظر بديلة في هذا الموضوع.

١٠ – "**أرسطو في تعدد الوجود**" عام ١٩٨٨.

١١ – "**دراسات في طريق الكلمات**" عام ١٩٨٩.

١٢ – "**مفهوم القيمة**" عام ١٩٩١.

١٣ – "**جوانب العقل**" عام ٢٠٠١.

كما ترك محاضرات ومذكرات لم تنشر بعد، وهي متاحة في محفوظات جامعة كاليفورنيا، وتتضمن في جانبها الأكبر أفكاره في علم النفس الفلسفي، والأخلاق، وعلم النفس الأخلاقي. ومن يدري! لعل هذه المحاضرات والمذكرات إذا رأت النور تركت في الفكر المعاصر أثراً لم يخطر لصاحبها على بال.

وإذا كان جرايس يمتاز بشيء في تكوينه الفكري وإنتاجه الفلسفي، فإنما يمتاز بدراسة الفلاسفة العظماء في الماضي، والنظر إلى أرسطو وكانط بخاصة بعين الإكبار والإجلال. وهذه العناية بدرس الماضي تكاد تكون غائبة في كتابات كثير من الفلاسفة الأحياء. صحيح أن لكل عصر مشكلاته، ولكن العناية الدقيقة بتاريخ الفلسفة كفيلة بأن تجعل الفلاسفة المعاصرين لا يغلون في تقدير أنفسهم غلواً كبيراً. وليس أدل على ذلك، إن كان في حاجة إلى دليل، من أن العناية الحالية بالفكر الشرقي القديم؛ المصري والبابلي والهندي وغير ذلك، جعلتنا نعيد النظرفيما سمي "المعجزة

اليونانية". ويمتاز جرايس أيضاً بأنه "كان دقيقاً في عرض المشكلات الفلسفية، ودقيقاً في الكشف عن القضايا التحتية، والمسائل المنهجية"[٦]. ومهما كانت الصعوبة التي يكابدها المرء في قراءة نصوصه، فسوف يجد أن هذه النصوص تفيض حيوية، وأن سرّ هذه الحيوية هو أنه يعشق الأفكار ويعكف عليها ويفرغ لها.

ولعل السبب في أن جرايس كان مقلاً فيما ينشره هو أنه وضع لنفسه ولغيره من الفلاسفة معايير عالية إلى درجة يتعذر تحقيقها، وفي مقدمتها تحرّي طرائف الأفكار، وهو لا يتحرى جدة الأفكار وطرافتها فحسب، وإنما يتحرّى أيضا دقتها ووضوحها ويتقي لبسها وغموضها. ولقد نشر مجموعة مقالات من الطراز الرفيع، حظيت بتقدير غيره من الفلاسفة، ونوقشت على نطاق واسع، وأصبحت من «كلاسيكيات» الفلسفة المعاصرة؛ ومع كلّ هذا كان يرغب دائماً عن أن تذهب إلى المطبعة في كتاب! ولطالما ألحّ الأصدقاء والناشرون عليه لكي يجمعوا ما تفرق من مقالاته، ولكنه كان يمتنع على هؤلاء امتناعاً شديداً، وكان يبغض الإسراع إلى الإنتاج أشد البغض، ويؤثر عليه طول النظر والتأنّي والتعمق.

ولا عجب بعد هذا كله أن يقول هيلاري بتنام Hilary Putnam (١٩٢٦ – ؟؟؟؟) في كلمة على غلاف كتاب جرايس (دراسات في طرق الكلمات): "تأتي أهمية بعض الفلاسفة نتيجة أنهم قدّموا مقالاً مهماً أو نظرية مهمة. وتأتي أهمية بعضهم الآخر نتيجة أنهم يملكون عقولاً تتألق بطريقة معينة بالإضافة إلى تقديم المقالات والنظريات. وجرايس فيلسوف من هذا النوع الثاني العظيم... إن ألمعيته وقدرته العقلية وتأثيره البالغ هي وسائل لنقل صورة عن الفلسفة، وهي صورة تحمل شيئاً كثيراً يقال للفلاسفة التحليليين اليوم". ويقول ستراوسون P. F. Strawson (١٩١٩ – ؟؟؟؟)، وهو حاصل على لقب سير، إن جرايس "واحد من أعظم المفكرين براعة وإبداعاً في عصرنا... ولقد تعلمت منه أكثر من أي شخص آخر صعوبة الحجة الفلسفية وإمكاناتها، وبدت سعة حيلته لا تنضب ولا تنفد"[٧].

ولقد وضع جرايس جملة من الأفكار في المعنى والاتصال حفل بها الفلاسفة، وأصحاب العلم المعرفي وعلماء اللغة، ويظهر في طليعتها ما يأتي:

١ – يؤكد جرايس على الأهمية الفلسفية للفصل بين المسائل الآتية المتعلقة بجملة معينة (س) والمتكلم (م):

أ – ما تعنيه الجملة (س).

ب – ما (قاله) المتكلم (م) في مناسبة معينة بنطق (س).

جـ – ما (يعنيه) المتكلم (م) بنطق الجملة (س) في هذه المناسبة.

٢ – قدم محاولات نسقيه لبيان ما عساه أن يكون المعنى على وجه الدقة، وتجسّدت هذه المحاولات في سلسلة من التحليلات الدقيقة إلى أبعد الحدود للمعنى لدى المتكلم، ومعنى الجملة، والمقول.

٣ – وضع تقريراً يوضّح إلى أي حدّ يمكن أن يختلف ما يقوله المتكلم عما يعنيه المتكلم.

٤ – عندما وصف التمييز المهم فلسفياً بين المضامين الدلالية الحقيقية للعبارة ومضامينها الاستعمالية فحسب، وضّح العلاقة بين المنطق «الكلاسيكي» وعلم الدلالة الخاص باللغة الطبيعية(٨).

٥ – عندما ابتكر نظريته في "الاقتضاء التخاطبي"، وابتكر لها اسمها كذلك، بدأ عهداً جديداً في علم الاستعمال Pragmatics، وشقّ طريقاً فريداً إلى معالجة مشكلات الفلسفة؛ ذلك أن الاقتضاء التخاطبي لم يكن نظرية لغوية فحسب، وإنما كان أداة مثمرة لحلّ كثير من المشكلات الفلسفية والمنطقية أيضاً.

والشيء المحقق أن جرايس أجبر الفلاسفة وعلماء اللغة على التفكير بعناية شديدة حول أنواع الحقائق التي تسعى النظرية الدلالية إلى تفسيرها؛ وأجبرهم أيضاً على التأمل في الأفكار النظرية الأساسية التي ربّما سلّموا بصحتها أو استخدموها استخداماً يعوزه الاهتمام الكافي. وليس من شكّ في أن اقتراحات جرايس الإيجابية عليها بعض المآخذ، وتشوبها بعض النقائص، ولكن على ضوء عمله، يتعين على أية نظرية جادّة في المعنى أن تضع خطّاً فاصلاً بين الحقائق الدلالية semantic الخالصة

والحقائق المتعلقة بطبيعة التفاعل الإنساني human interaction[٩]. ومن اليسير أن تدرك كيف يؤثّر عمل جرايس تأثيراً عميقاً في الدرس الفلسفي المعاصر في اللغة، شأنه في ذلك شأن كبار الفلاسفة. انظر إلى مفهومه عن المعنى لدى المتكلم (ضمن نظرية المعنى theory of meaning) ونظريته في الاقتضاء التخاطبي (ضمن نظرية المحادثة theory of conversation) تجد أنهما يوضعان من حيث الأهمية والأثر جنباً إلى جنب مع تمييز فريجة بين المعنى sense والإشارة reference، ونظرية الأوصاف theory of descriptions عند رسل Bertrand Russell (١٨٧٢ – ١٩٧٠) ونظرية تارسكي Alfred Tarski (١٩٠٢ – ١٩٨٣) في الصدق وتطوير ديفيدسون لها. ومذهب اللاتحديد في الترجمة indeterminacy of translation عند كواين، ونحو ذلك من نظريات تمثل لب لباب فلسفة اللغة المعاصرة.

وكان جرايس واحداً من الأعضاء البارزين في فلسفة اللغة العاديّة ordinary language philosophy، وكان متعاطفاً مع كثير من أهدافها ومناهجها. وفلسفة اللغة العادية – التي تسمى أحياناً فلسفة مدرسة أكسفورد – هي منهج لممارسة الفلسفة أحرى من أن تكون مذهباً محكوماً بعقائد معينة. وتنتمي هذه المدرسة إلى الفلسفة التحليلية، وتمثل مرحلة متأخرة من مراحل تطورها، ولذلك فإنها تقتسم معها هدفها الأساسي، أو الهدف الأساسي من بين أهدافها، ألا وهو تحليل المفاهيم أحرى من بناء الأنساق الميتافيزيقية. ولكن الشيء الذي اختلفت فيه مدرسة أكسفورد مع التيارات الأخرى في الفلسفة التحليلية هو دراسة استعمال الكلمات في سياقها العادي غير الفلسفي، واعتبار هذه الدراسة أداة مساعدة للبحث الفلسفي. يقول جرايس: "إن الموقف الوحيد الذي حظي بموافقة عامة (من فلاسفة اللغة العادية) من وجهة نظري هو أن الفحص الدقيق للجوانب التفصيلية في الخطاب العادي مطلوب بوصفه أساساً للتفكير الفلسفي"[١٠].

وتأسست هذه المدرسة الفلسفية في جامعة أكسفورد في الأربعينات بزعامة جون أوستن J. L. Austin (١٩١١ – ١٩٦٠) وجلبرت رايل Gilbert Ryle (١٩٠٠

– ١٩٧٦) وبيتر ستراوسون Peter F. Strawson (١٩١٩ –). ولم يكن فلاسفة أكسفورد على رأي واحد في كل التفصيلات، بل هم لا يجتمعون معاً إلا على الأسس العامة التي تشكل جوهر اتجاههم، ثم بعد ذلك يتفرقون؛ فلكلّ مشكلاته التي يعنى بها أكثر من غيرها، ولكلّ إسهامه الخاص في معالجة هذه المشكلات؛ ونستطيع أن نقول: إن الارتباط بينهم أشبه شيء بالتشابه العائلي. وبعد وفاة أوستن في عام ١٩٦٠، وعودة أير A. J. Ayer (١٩١٠ – ١٩٨٩) إلى أكسفورد بعد غياب طال أمده، وتحول اهتمام الفلاسفة إلى فلسفة كواين وديفيدسون وغيرهما من الفلاسفة التحليليين الأمريكيين، أخذ التحلل يسري في أوصال هذه الحركة شيئاً فشيئاً.

ويشترك جرايس مع غيره من فلاسفة اللغة العادية في التوكيد على اللغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، أما تصوره للعلاقة بين ممارسته الفلسفية الخاصة وفلسفة اللغة العادية، واقتسامه للفكرة القائلة: إن الخطاب العادي غير الفلسفي جدير بعناية الفيلسوف، فيتضح من خلال تأييده للقضيتين الآتيتين:

١ – إن الجانب المهم من وظيفة الفيلسوف – وليس الوظيفة كلها – هو تحليل الاستعمالات العادية لتعبيرات معينة ووصفها وتصوير خصائصها في حدود عامة ما استطاع إلى ذلك سبيلاً، فإذا تناول الفيلسوف فكرة العلّة، فإننا نتوقع أن نجده باحثاً، من بين أشياء أخرى، في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثاً عادياً، ونكون على استعداد للكلام عن شيء بوصفه علّة لحدوث شيء آخر. وإذا تناول الإدراك الحسي، فإننا نتوقع أن يبحث في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثاً عادياً عن شخص يرى شجرة أو ثمرة مثلاً. وإذا عالج مشكلة المعرفة والاعتقاد، فإننا نتوقع أن يبحث في نوع المواقف التي نتحدث فيها حديثاً عادياً عن شخص يعرف أن شيئاً ما هو الواقع أحرى من اعتقاده بذلك. وخليق بنا أن نشير إشارة خاصة إلى تلكم الحالات التي يلتمس فيها المرء أشياء لا تقال بطريقة عادية على الإطلاق. خذ مثلاً مناقشة المعرفة والاعتقاد تجد أنه من المفيد أن نضع ملاحظة عن حقائق لغوية من قبيل أن المرء ربما يتحدث دون خطأ لغوي عن شخص بوصفه "يعتقد على نحو راسخ" firmly believing في شيء، ولكنه لا يتحدث عن شخص بوصفه "يعرف على

نحو راسخ " firmly knowing شيئاً ما. وهذه الحقائق اللغوية – أو على الأقل الإجابات على السؤال: لماذا تكون هذه حقائق لغوية – ربما تكون ذات أهمية فلسفية[١١].

٢ – من الخطأ بيقين تقريباً (وربما بيقين تماماً) أن نرفض فئة من العبارات العادية بوصفها كاذبة أو محالة أو غير صحيحة لغوياً، إذا قام هذا الرفض على أسس فلسفية فحسب. خذ مثلاً، إذا شاء فيلسوف أن يثبت من خلال حجة فلسفية أننا لا نرى أبداً في الواقع أشجاراً وكائنات بشرية، مع أننا نقول بصورة عادية إننا نراها، فإن هذا الفيلسوف سيكون مخطئاً بيقين تقريباً (وربما تماماً)[١٢].

ولكن هل تأييد جرايس لهاتين القضيتين يلزمه بتبني القول: إن الاستعمالات غير العادية للغة يجب أن تكون محظورة على الفيلسوف ويجب عليه أن يتجاهلها؟ الجواب عنده بالنفي. فليس استعمال التعبيرات استعمالاً عادياً هو الذي يميز الفيلسوف من غير الفيلسوف، وإنما القيد الوحيد الذي يراه جرايس في هذه النقطة هو «أن الفيلسوف الذي يستخدم مصطلحاً فنياً لا بدَّ من أن يدرك أنه مصطلح فني، ومن ثم يكون في حاجة إلى تفسير خاص. وعندما يعترض فيلسوف على حجة فيلسوف آخر بالقول: «ولكن هذا ليس استعمالاً عادياً للتعبير كذا وكذا» فإن اعتراضه لا يكون على الاستعمال غير العادي أو الاصطلاحي للتعبير، وإنما يكون على استعمال التعبير بطريقة غير عادية «من دون» التفسير الضروري، ويكون الاعتراض بالفعل على إخفاق المتكلم في إدراك أنه قد استبدل الاستعمال غير العادي بالاستعمال العادي»[١٣].

وهذا يعني أنك تجاوز الحق إذا حسبت أن الفكرة التي يجمع عليها فلاسفة أكسفورد هي الالتزام باجتناب أية مصطلحات فنية في الفلسفة. ويكفي لبيان هذا أن يلقي المرء نظرة عجلى على مؤلفات هؤلاء الفلاسفة، وسيجد أن أوستن ابتكر بعض المصطلحات في كتابه «كيف نصنع الأشياء بالكلمات»، وسوف نشير إلى أبرزها فيما بعد، ولم يتردد ستراوسون وجرايس وغيرهما في استخدام المصطلحات عندما تكون

مفيدة، ولم يكن اعتراضهم إلا على تقديم مصطلحات فنية غير ضرورية أو يعوزها التعريف وتفتقر إلى التفسير.

ولئن كان جرايس متعاطفاً مع أهداف فلسفة اللغة العادية ومناهجها، إلا أن كتاباته تتضمن تنقيحاً ونقداً لفكرة محورية أخرى يتفق عليها أنصار هذه الفلسفة، وهي أن المعنى هو الاستعمال أو قل إن المعنى يتحدد عن طريق الاستعمال، وتتلخص نظرية الاستعمال في المعنى في الشّعار المشهور القائل: «لا تسأل عن المعنى، بل اسأل عن الاستعمال». ونحن نجد في مقالته «المعنى» محاولاته الأولى لبيان ما عساه أن يكون المعنى على وجه الدقة؛ ونجد فيها أيضاً تفسيراً لمعنى التعبير (أو أية علامة أخرى) في حدود ما يفعله المتكلمون بهذا التعبير، أو قل في حدود ما يعنيه المستعملون لهذا التعبير في مناسبات معينة.

وهناك وجهتان من النظر تظهران مدى عناية جرايس بالاستعمال، تقول الأولى: إن الفكرة الأساسية عن المعنى هي أن المتكلم يعني شيئاً ما عندما يلفظ قولاً في مناسبة محددة. وكل الأفكار الأخرى المتعلقة بالمعنى يتعين معالجتها على أنها «مشتقة» و«مفسرة» في حدود هذه الفكرة الأساسية[١٤]. وفي هذا السياق يقول جرايس: «من الضروري التمييز بين فكرة المعنى التي تتصل بمستعملي الكلمات أو التعبيرات وفكرة المعنى التي لا تتصل بمستعملي الكلمات أو التعبيرات. والفكرة غير المتصلة من الفكرتين تكون لاحقة على الفكرة؛ تكون لاحقة على الفكرة المتصلة، ويتعين أن تكون مفهومة في حدودها. وما تعنيه الكلمات هو مسألة ما يعنيه الناس بها»[١٥]. وأما وجهة النظر الثانية فهي أن التعبير «بنطق الجملة (س) يعني المتكلم (م) أن (ق)» يمكن تحليله في حدود مقاصد المتكلم الموجهة إلى المستمع.

٢ - نقد النظرية السببية في المعنى

استهل جرايس بحثه في المعنى بمناقشة النظرية السببية causal theory التي عبر عنها ستيفنسون Charles L. Stevenson (١٩٠٨-١٩٧٩) في كتابه «الأخلاق واللغة» ١٩٤٤. وترتبط النظرية السببية بالنظرية السلوكية في دراسة اللغة والمعنى التي كتبت لها السيطرة على الدراسة النفسية واللغوية في النصف الأول من القرن العشرين، وتجلت السلوكية اللغوية في كتابات بلومفيلد L. Bloomfield (١٨٨٧-١٩٤٩). أما أصولها في علم النفس فتتمثل في نظرية المثير والاستجابة stimulus - response عند واطسون J. B. Watson (١٨٧٨-١٩٥٨). وإذا كانت النظرية السلوكية في المعنى تحاول تفسير المعنى استناداً إلى المثيرات التي تستدعي استجابات لفظية، فإن أصحاب النظريات السببية في المعنى يسلمون كذلك بأن تفسير المعنى يتطلب من المرء الانتباه إلى دور المتكلمين والمستمعين، وأن الأمور المتعلقة بهم لا بد من أن تكون متاحة للملاحظة، ومن هنا اقترح ستيفنسون تعريف المعنى في حدود الاستجابات النفسية.

والغاية التي قصد إليها ستيفنسون من قبول النظرية السببية هي إضفاء الشرعية على فكرة المعنى الانفعالي emotive meaning التي استخدمها في فهم الكلام المتعلق بالقيمة، ذلك أن أخص ما يمتاز به هذا الكلام القيمي – سواء كان أخلاقياً أو جمالياً – هو أن الكلمات المستخدمة فيه ذات معنى انفعالي. والمعنى الانفعالي لديه هو القوة أو الاستعداد disposition لإحداث تأثيرات انفعالية في المستمع.

وكلّ من يتجرّأ على وضع نظرية في المعنى تواجهه المعضلة الآتية: إذا كانت الكلمة منفصلة تمام الانفصال عن «العادات السيكولوجية» pshychological habits لأولئك الذين يستعملونها، فإنها تصبح خالية من أي مشار referent ولا تتمتع بأهمية أكثر من أي صوت مركب آخر، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يكون معنى الكلمة مستقراً (بصورة نسبية) على حين تتدفق الحالات السيكولوجية للمتكلمين تدفقاً مستمراً[١٦].

والرأي عند ستيفنسون أن طريقة الإفلات من هذه المعضلة هي تحديد المعنى عن طريق الخاصية الاستعدادية dispositional property؛ فالعمليات السيكولوجية تأتي بوصفها استجابات للكلمة، ومن ثم فإن المعنى هو استعداد العلامة لإحداث استجابات معينة في المستمع. وعلى هذا النحو نقول مع ستيفنسون إنه لكي تعني العلامة (أو الجملة) شيئاً ما، فلا بدّ من أن تملك استعداداً لأن تحدث في المستمع موقفاً معيناً، واستعداداً في حالة المتكلم لأن تكون محدثة عن طريق هذا الموقف. وتعتمد هذه الاستعدادات على «عملية مفصلة للإشراط تلازم استعمال العلامة في التواصل»[١٧]. ولكن جرايس انتقد هذا، وقدم مثالاً مضاداً مؤدّاه أن كثيراً من الناس يميلون إلى ارتداء سترة طويلة مشقوقة من الذيل عندما يذهبون إلى الرقص، وأن كثيراً من الناس عندما يرون شخصاً يرتدي مثل هذه السترة الطويلة فسوف يستنتجون أن هذا الشخص ذاهب تقريباً إلى الرقص. فهل هذا يقنعنا بأن ارتداء سترة طويلة يعني أيّ شيء بالمعنى الذي يحفل به الفلاسفة؟ الجواب هو النفي.

وأدرك جرايس أن هذا المثال المضاد يستبعده إصرار ستيفنسون، في العبارة التي اقتبسناها للتو، على الشرط الذي يفضي إلى أن الاستجابة تأتي نتيجة «لاستعمال العلامة في الاتصال». ومع ذلك فإننا نقع في مشكلة جدّ خطيرة، وهي أن هذا التقرير دائري بصورة واضحة، والسبب في ذلك أننا ندخل الآن في تقريرنا «استعمال العلامة في الاتصال»، وما نريده هو أن نقدم تقريراً عما يجعل شيئاً ما استعمالاً اتصالياً للعلامة.

وهناك اعتراض آخر يقوم أمام النظرية السببية من النوع الذي عرضنا له، ومفاده أنها تقدم لنا تحليلاً فقط للعبارات المتعلقة بالمعنى المعياري للعلامة أو معنى العلامة بصفة عامة، ولا تقدم شيئاً ذا بال عن العبارات الخاصة بما يعنيه متكلم أو كاتب بعلامة معينة في مناسبة ما، وهذا المعنى ربما يختلف عن المعنى المعياري للعلامة. وسوف نوضح فيما بعد المراد بالمعنى المعياري والمعنى لدى المتكلم. والفكرة المحورية التي يؤكد عليها جرايس هي أن معنى العلامة يحتاج إلى تفسير في حدود ما يعنيه المستعملون بها في مناسبات معينة، وهي فكرة لا نجد لها تفسيراً في النظرية السببية.

٣ - معركة هوميرية:
نظريات الاستعمال في مقابل النظريات الصورية

في محاضرته الافتتاحية «المعنى والصدق» التي ألقاها في جامعة أكسفورد في نوفمبر سنة ١٩٦٩ بمناسبة تولّيه كرسيّ الفلسفة خلفاً لجلبرت رايل، استهل ستراوسون حديثه ببيان مكانة رايل وأصالته الفلسفية ثم طرح مجموعة من الأسئلة: ما الذي يوجد لأي شيء لكي يملك «معنى» على الإطلاق بالطريقة أو بالمغزى الذي تملك به الكلمات أو الجمل أو العلامات معنى؟ ما الذي يوجد لجملة محددة لكي تملك المعنى أو المعاني التي تملكها؟ وما الذي يوجد لعبارة محددة أو كلمة معينة لتملك المعنى أو المعاني التي تملكها؟[١٨] إن تساؤلات ستراوسون هذه تدور حول المعنى بصفة عامة في ناحية، وحول معاني الكلمات والجمل والعبارات في ناحية أخرى. ويمكن أن نوسّع هذه الفكرة ونزيدها توضيحاً إذا قلنا إن الأسئلة المتعلقة بالمعنى تنقسم إلى فئتين: تدور أسئلة الفئة الأولى حول معاني التعبيرات اللغوية مثل معنى الكلمة، ومعنى شبه الجملة، ومعنى الجملة. وأبرز أمثلة هذه التعبيرات معاني أسماء الأعلام proper names مثل «العقاد» و«طه حسين» و«العبارات الوصفية» descriptive phrases مثل «مؤلف عبقرية محمد» و«مؤلف دعاء الكروان»، وترتبط بهذه الأسئلة أسئلة أخرى من قبيل كيف تسهم الكلمات في معاني الجمل؟ والأسئلة في هذه الفئة تنتمي إلى علم الدلالة semantics.

أما أسئلة الفئة الثانية فتدور حول المعنى نفسه. وبعض هذه الأسئلة انطولوجية ontological وبعضها مفهومية conceptual. وتتعلق الأسئلة الانطولوجية بوجود المعاني، فنتساءل مثلاً: هل المعاني كائنات؟ وإذا كانت كذلك، فما أنواع الكائنات التي تكونها المعاني؟ وأين توجد هذه الكائنات؟ وإذا قلنا: إن معنى الجملة الكاملة هو القضية التي تعبر عنها، فإن السؤال عن طبيعة القضايا ووجودها سرعان ما يطرح نفسه، وإذا قلنا إن معاني الكلمات الشيئية على وجه التحديد هو ما

تشير إليه في الواقع، فإن السؤال عن علاقة المعنى بالصدق أو الإشارة سرعان ما يلقي نفسه أيضاً، وإذا كانت المعاني لا توجد في الأعيان أو العالم الخارجي outer realm، فهل توجد في الأذهان أو العالم الداخلي inner realm، أم توجد في عالم ثالث third realm كما اقترح فريجة؟

وتركز الأسئلة المفهومية في الفئة الثانية على تحليل مفهوم المعنى، والأمثلة التي تأتي في طليعتها هي: هل نستطيع أن نقدم تحليلاً فلسفياً لمفهوم المعنى اللغوي؟ وما علاقة المعنى بالأفكار الدلالية الأساسية التي تدور في فلكه من قبيل الصدق والإشارة؟ وإذا كانت أسئلة الفئة الأولى تنتمي إلى علم الدلالة، وتأتي أسئلة الفئة الثانية لتتخذ من أسئلة الفئة الأولى مادة للشرح والتحليل، جاز لنا القول إن أسئلة الفئة الثانية تنتمي إلى ما بعد علم الدلالة meta-semantics.

والذي يعنينا الآن من هذه الأسئلة عن المعنى سؤالان هما: ما معنى الجملة sentence meaning؟ وما المعنى لدى المتكلم speaker's meaning؟ إن معنى الجملة هو ما تعنيه الجملة بصورة حرفية. فالجملة «زيد رئيس قسم نشيط» تعني زيد رئيس قسم نشيط. وكان الرأي عند فريجة أن العبارة السابقة تأخذ الصيغة الآتية: «زيد رئيس قسم نشيط» صادقة إذا وفقط إذا كان زيد رئيس قسم نشيطاً. ولكن تخيل أنني أتحدث مع زائر إلى قسمي وسألني عن زميلي زيد، وعما إذا كان فيلسوفاً مهماً. وكان ردي هو نطق الجملة «زيد رئيس قسم نشيط» ولكني لم أقصد معناها الحرفي الدقيق، وإنما قصدت معنى آخر هو أن زيداً فيلسوف غير مهم. وهنا يظهر المعنى لدى المتكلم ليتجاوز المعنى الحرفي، وينتقل إلى مقاصد المتكلم.

وفي هذه الحالة نجد أنفسنا أمام مسألة العلاقة بين معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم. هل نفسر معنى الجملة في حدود المعنى لدى المتكلم أم نعكس طريق السير؟ رأى فريجة أن تفسير معنى الجملة المتمثل في امتلاك شروط الصدق، يأتي في المقام الأول، ثم يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم بعد ذلك. ولكن الرأي عند جرايس أن طريقة فريجة تقلب الأمور رأساً على عقب، وأن الصواب هو أن تفسير معنى الجملة يأتي في حدود المعنى لدى المتكلم.

لقد لاحظ ستراوسون في مقالته «المعنى والصدق» أن هناك معركة حامية الوطيس بين فريقين من الفلاسفة: الفريق الأول ناصر فكرة فريجة، والفريق الثاني يؤيد فكرة جرايس. يقول ستراوسون: «إن المعركة على ما يبدو أن القضية الأساسية في الفلسفة لها شيء من الطبيعة الهوميرية. والمعركة الهوميرية تقتضي الآلهة والأبطال. وأستطيع أن أذكر بصورة مؤقتة على الأقل بعض القادة الأحياء والأرواح الكريمة (يقصد الأموات). في الجهة الأولى، هناك على سبيل المثال جرايس، وأوستن، وفتجنشتين المتأخر later Wittgenstein. وفي الجهة الثانية هناك تشومسكي N. Chomsky وفريجة وفتجنشتين المبكر earlier Wittgenstein»[١٩]. ويسمي ستراوسون فلاسفة الجهة الأولى «أصحاب نظرية قصد الاتصال» ويضع ستراوسون نفسه في زمرتهم؛ ويسمي الفلاسفة في الجهة الثانية «أصحاب علم الدلالة الصوري»؛ ويمكن أن نتبنى مصطلحاً أكثر شمولاً فنقول: إن فلاسفة الجهة الأولى يقدمون نظريات الاستعمال في المعنى use theories of meaning (ومن بينها النظرية القصدية)، ويقدم فلاسفة الجهة الثانية النظريات الصورية في المعنى formal theories of meaning. والشيء الذي لا شكّ فيه هو أن توضيح الأفكار الأساسية في هذه النظريات سوف يلقي بأضواء شارحة على أفكار جرايس، ويجعل فهمها أمراً ميسوراً.

ولعل الشيء الذي تمتاز به النظريات الصورية في المعنى هو أنها تهتم اهتماماً بالغاً بالبنية الصورية formal structure للغة، وتحرص أشد الحرص على دراسة العلاقات المتبادلة بين الجمل. وقد وجد القائلون بهذه النظريات في التطورات الحديثة التي حدثت في المنطق الصوري خير معين لهم على هذه الدراسة. وتسعى النظريات الصورية إلى تفسير جملة من المسائل في طليعتها: كيف يستطيع الشخص الذي يستعمل اللغة أن يفهم عدداً لا متناهياً من الجمل المتنوعة ويؤلفها بينما لا يملك إلا مخزوناً متناهياً من الجذور الدلالية؟ وتفسير هذه المسألة يعد تفسيراً للخاصة المميزة للّغة البشرية. ومن أبرز الفلاسفة الأحياء الذين يقدمون نظريات صورية في المعنى نجد دونالد ديفيدسون في دراسات كثيرة أشهرها كتابه «بحوث في الصدق والتفسير» عام ١٩٨٤، ومايكل دميت في كتاباته المتنوعة وبخاصة كتاب «بحور اللغة» عام ١٩٩٣.

وأكد أصحاب النظريات الصورية في المعنى على أن الوظيفة التي يتعين أن تقوم بها أية نظرية كافية في المعنى هي أن تقدم تقريراً عن الملامح الآتية في اللغة:

١ - إن الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى.

٢ - إن معنى الجملة يتحدد عن طريق معنى عناصرها المكونة.

٣ - إن معنى العنصر المكون في جملة يتحدد عن طريق إسهامه في معنى أية جملة يظهر فيها[٢٠].

والشيء المحقق أن النظريات الصورية في المعنى اكتسبت تأييداً قوياً في النصف الأول من القرن العشرين من خلال تطبيق الأدوات المنطقية التي اصطنعها فريجة ورسل على اللغة، ومن خلال التحليل المنطقي لبنية اللغة الذي عرضه فتجنشتين المبكر في كتابه «رسالة منطقية فلسفية». ولكن هذه النظريات تعرضت لهجوم عنيف مع مطلع النصف الثاني من هذا القرن، وجاء هذا الهجوم من فتجنشتين المتأخر وأوستن ومن سار في ركابهما. وكان من ثمرة هذا الهجوم أن تحول مركز الاهتمام من اللغة الصورية المنطقية إلى اللغة الطبيعية. وإذا كانت العناية الصورية ببنية الجمل والعلاقات القائمة فيما بينها قد مكنت أصحاب النظريات الصورية من اجتناب اللبس والغموض والاشتراك اللفظي وغيرها من الظواهر التي تزخر بها اللغات الطبيعية، فإن أصحاب نظريات الاستعمال نادوا بضرورة إعادة الكلمات من استعمالها المثالي إلى استعمالها في الحياة اليومية، أو إن شئت قل دراسة اللغة في موطنها الطبيعي ومسكنها الأصلي، ومن ثمّ نظروا إلى اللبس مثلاً، على أنه من الظواهر التي تقع في قلب القوة التعبيرية للّغة.

يلتقي أصحاب النظريات الصورية وأصحاب نظرية الاستعمال عند أمور ويفترقون عند أمور أخرى؛ ومن الأمور التي يلتقون عندها ويتفقون عليها قولهم إن الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى the sentenc is the primary bearer of meaning. ولقد أشار كواين في مقالته «خمسة معالم للتجريبية» (ضمن كتابه «النظريات والأشياء» عام ١٩٨١) إلى تحول المركز الدلالي من الكلمات إلى الجمل على

أنه يمثل المعلم الثاني من المعالم الخمسة التي ميزت التجريبية في تطورها بعد هيوم وحتى إسهام كواين نفسه(٢١).

تحول التجريبيون من الأفكار التي هي سرية وخاصة بكل شخص إلى الكلمات التي هي علنية ومشتركة بين الذوات، ولكنهم وجدوا أن النظر إلى الكلمة بوصفها وحدة المعنى يمثل صعوبة لا سبيل إلى تجاوزها في إدراك معاني فئة مهمة من كلمات اللغة. وتتجلّى هذه الصعوبة في السؤال: ماذا نحن صانعون بالأدوات النحوية مثل حروف الجر، وأدوات الربط، والأدوات المنطقية؟ إن هذه الأدوات الأساسية للكلام المعقول المتماسك، ولكنها بمفردها لا تؤلف كلاماً ذا معنى يحسن السكوت عليه. إن حرف الجر «في» لا يعني شيئاً بمفرده، وقل مثل هذا عن الأداة المنطقية «إذا... إذن» مثلاً؛ فهذه الأدوات لا معنى لها وهي منعزلة، وإنما تكتسب معناها عن طريق إسهامها في معنى الجملة التي تظهر فيها؛ ونحن نتعلمها وندرك معناها في سياق الجملة. وفكرة «السياق» هذه، أو «التعريف السياقي» هي التي أعطت الصدارة الدلالية للجمل، وسوغت الانتقال من الكلمة إلى الجملة بوصفها الوسيلة الأساسية للمعنى، وهذا أمر لا تخطئه العين في فلسفة فريجة ورسل وغيرهما من الفلاسفة التحليليين المعاصرين.

صحيح أن الاهتمام ببنية الجملة في النظريات الصورية يأتي على حساب الاهتمام بدور المتكلمين عند تفسير المعنى، ولكن من الحق أن نؤكد أن النظريات الصورية لا تلغي دور المتكلمين ومقاصدهم إلغاءً تاماً بل تمنحهم دوراً ما. وها هو ديفيد فيجنز David Wiggins (١٩٣٣-   ) يناصر النظريات الصورية، ويقدم تصوراً مركباً يمثل نظرية المعنى الكاملة. وتتألف هذه النظرية من سلسلة من الطبقات أو المستويات. فأما المستوى الأول فهو علم الدلالة semantics الذي يفسّر المعنى الدقيق والحرفي لما يقال في حدود شروط الصدق، وأما المستوى الثاني فهو علم الاستعمال pragmatics ويفسّر قوة المنطوق utteranc's force. وتأتي المستويات الأخرى اللاحقة لتفسّر التأثير عن طريق الكلام perlocutionary effect،

والاقتضاء التخاطبي conversational implicature، والنغمة ونحو ذلك، ويقول فيجتر: «إذا أصررنا من البداية على كل هذه الأشياء معاً في فكرة غير متميزة عن المعنى، فسيكون البحث عن نظرية نسقية لتفسير هذا المعنى أمراً ميئوساً منه»(٢٢).

وهكذا يدعي أصحاب النظريات الصورية أن نظرياتهم تأتي عند المستوى الأول؛ أي علم الدلالة، على حين تأتي الإشارة إلى نظرية الاستعمال عند المستوى الثاني؛ أي مستوى علم الاستعمال. ولكن أصحاب نظريات الاستعمال لا يقنعون بهذا الدور للمتكلمين ومقاصدهم في نظرية المعنى، ويرون أن تأخير الإشارة إلى دور المتكلمين إلى مستوى علم الاستعمال يجعل الخلاف بينهم وبين أصحاب النظريات الصورية خلافاً جوهرياً، لأن أصحاب نظريات الاستعمال يرون أن عملهم يدخل ضمن علم الدلالة. وها هو بريان لور Brian Loar – أحد أتباع جرايس – يقول: «إن أفكاراً مثل «لغة» و«معنى» لا بدّ من التفكير فيها دائماً على أنها مرتبطة ارتباطاً جوهرياً بجماعة من مستعملي اللغة. والأفكار الدلالية الحقيقية ليست هي «ل لغة» أو «س تعني م في ل» وإنما هي «ل هي لغة الجماعة ج» و«س تعني م في لغة الجماعة ج». ومن الواضح أن هذه الأفكار لا يمكن ردّها ردّاً صورياً إلى أفكار منطقية أو نحوية، ويتعين تقديم هذه الحقائق المتعلقة «باستعمال» اللغة، ومن ثم فإن الأفكار السيكولوجية تكون ضرورية في تحليل المفاهيم الدلالية»(٢٣). وخلاصة القول عند أصحاب نظرية الاستعمال هي أن علم الدلالة يقوم على مقومات أساسية، وأن مقاصد المتكلمين مقوّم أساسي من مقوماته، إن لم تكن المقوّم الأساسي الأول.

والشيء الذي لا شكّ فيه هو أن الاهتمام بالمتكلمين ومقاصدهم في نظرية المعنى دفع أصحاب نظريات الاستعمال إلى مناقشة فلسفة اللغة في إطار فلسفة الفعل وفلسفة العقل. ولعل هذا هو ما حدا بجون سيرل John Searle (١٩٢٣–   ) – وهو من أبرز أنصار النظرية القصدية في المعنى في عصرنا – إلى القول بأن تأثير فتجنشتين المتأخر وأوستن وجرايس «يعيد صياغة مناقشة الكثرة الكثيرة من المشكلات في فلسفة اللغة في السياق الأكبر لمناقشة الفعل والسلوك الإنساني بصفة

عامة. وبدلاً من النظر إلى العلاقات بين الكلمات والعالم بوصفها شيئاً يوجد في الفراغ، فإن المرء ينظر إليها الآن على أنها تتضمن أفعالاً قصدية من جانب المتكلمين»[٢٤]. وعندما يؤكد أصحاب نظرية الاستعمال على المتكلمين ومقاصدهم، فإنهم يؤكدون أقل التوكيد على بنية الجملة. ومع ذلك فكما أن أصحاب النظريات الصورية يحولون اهتمامهم في نهاية المطاف إلى المقاصد، فكذلك يحول أصحاب نظريات الاستعمال اهتمامهم في نهاية الأمر إلى البنية عندما يكون التحليل الأساسي في مكانه الملائم. ويقال عادة إن ضعف التناول الصوري يكون في طريقة معالجته للقصد، على حين أن ضعف التناول القصدي يكون في طريقة معالجته للبنية[٢٥].

والمتأمل في مقالة جرايس «المعنى» لا يجد أية إشارة إلى البنية، وهذا لا يعني استبعادها تماماً من الدرس الدلالي، وتعليل هذا ليس بالأمر العسير؛ ذلك أن جرايس لم ينكر أبداً أهمية البنية بالنسبة للغة، ولكن نظرته العامة للمعنى دفعته إلى إغفال ذكر البنية. فالمعنى في رأيه ظاهرة توجد في اللغة وخارجها سواء بسواء، أما البنية في رأي أصحاب النظريات الصورية فلا وجود لها إلا في اللغة.

ولقد أشار ستراوسون إلى أن الفريقين يتفقان في بعض المسائل ويختلفان في مسائل أخرى؛ فهما يتفقان معاً على أن معاني الجمل في اللغة تتحدد على نطاق واسع عن طريق القواعد الدلالية والتركيبية semantic and synatctic rules لهذه اللغة. ويتفقان أيضاً على أن اشتراك جماعة من الناس في معرفة لغة ما وامتلاكهم لقدرة لغوية مشتركة يعني أنهم يملكون تحت تصرفهم وسيلة فعالة للتواصل، وبذلك يعدّل بعضهم اعتقادات بعض، ويؤثّر بعضهم في أفعال بعض. ويتفق الفريقان أيضاً على أن ما يقصد الناس توصيله يرتبط ارتباطاً مطرداً بالمعاني الاصطلاحية للجمل التي ينطقونها. ولكنهما يختلفان حول العلاقات بين قواعد اللغة التي تحدد المعاني من ناحية ووظيفة التواصل من ناحية أخرى. فبينما يصرّ صاحب نظرية الاستعمال على أن الطبيعة العامة لهذه القواعد لا يمكن فهمها إلا عن طريق الرجوع إلى وظيفة التواصل، يرفض صاحب النظرية الصورية التسليم بذلك[٢٦].

كان الهدف الذي رام ستراوسون بلوغه هو منح النظرية الصورية ونظرية الاستعمال على حد سواء مكاناً ملائماً في نظرية المعنى، وإن شئت الدقة قل: إنه يريد أن يمنح نظرية الاستعمال مكانها المناسب إلى جوار النظرية الصورية التي كانت تطمح إلى الاستئثار بنظرية المعنى. فصاحب نظرية الاستعمال يتعين عليه أن يناقش النظرية الصورية بقدر ما تتجلى في شروط الصدق عند ديفيدسون، ولا يمكن فهم شروط الصدق دون إشارة إلى فعل التواصل. والسؤال الذي يلقي نفسه الآن ويتطلب جواباً هو: كيف انتهى ستراوسون إلى هذه النتيجة؟

اقترح دونالد ديفيدسون نظرية في المعنى واشترط فيها أن تكون ضرورية وكافية بالنسبة للغة الطبيعية. وأخص ما تمتاز به هذه النظرية هي أننا نفهم المعنى أحسن ما يكون الفهم عن طريق الصدق. ولو شئت عبارة موجزة تلخص بها هذه النظرية قل: إن تقديم «الشروط الضرورية والكافية لصدق كل جملة... هو الطريق إلى تقديم معنى الجملة»[٢٧].

ولكن ستراوسون ذهب إلى أن هذا الاقتراح لا يفيد في فهم المعنى اللهم إلا إذا كنا نملك فهماً للصدق. والصدق الذي يعنينا هنا ليس الصدق في لغة معينة، وإنما الصدق بصفة عامة. والشيء الذي نقوله عن الصدق بصفة عامة هو «إن المرء الذي يضع عبارة أو تقريراً يضع عبارة صادقة إذاً وفقط إذا كانت الأشياء كما هي عليه. وعندما يضع هذه العبارة فإنه يقرر أنها كذلك. ومن ناحية أخرى، فإن المرء الذي يعبر عن قضية يعبر عن قضية صادقة إذاً وفقط إذا كانت الأشياء كما هي، وبتعبيره عن هذه القضية فإنه يفترض بوضوح أنها كذلك»[٢٨].

ولو أضفنا هذه الفكرة العامة عن الصدق إلى الفكرة القائلة إن المعنى يمكن تعيينه في حدود شروط الصدق، لحصلنا على رأي مؤدّاه أنّ تحديد معنى الجملة الإخبارية، مثلاً، هو تحديد الكيفية التي قرّر بها الشخص الأشياء عندما (وضع تقريراً) عن طريق نطق الجملة. وأنت تلاحظ أننا قد انتقلنا هنا انتقالاً معقولاً لا تكلف فيه من مفهوم الصدق إلى مفهوم الفعل الكلامي speech act لوضع التقرير ومضمون هذا الفعل.

وعند هذه النقطة يجد صاحب نظرية الاستعمال الفرصة مواتية، فنراه ولسان حاله يقول: «لا يوجد أمل في توضيح فكرة مضمون هذه الأفعال الكلامية من غير أن نولي أفكار هذه الأفعال الكلامية ذاتها اهتماماً ما... ويؤكد صاحب نظرية قصد الاتصال أننا لا نستطيع أن نوضح فكرة التقرير أو التوكيد اللهم إلا في حدود القصد الموجه إلى المستمع، لأن الحالة الأساسية للتقرير أو التوكيد... هي حالة لنطق جملة بقصد معين»(٢٩). وعلى هذا النحو نجد أن الصدق ضروري للمعنى ولكنه ليس كافياً، ومن ثم لا مندوحة عن الاستعانة بقصد مستعمل اللغة أيضاً إذا شئنا فهماً كافياً للمعنى.

والنتيجة التي يريد ستراوسون أن يخلص إليها من هذا كلّه هي أن الإشارة إلى المتكلمين ومقاصدهم ذات أهمية بالغة في فهم اللغة. وفي معرض ردّه على بعض علماء اللغة وفلاسفة اللغة الذين يطمحون إلى إقامة نظرية دلالية في اللغة لا تعتمد على مفهوم الاتصال، يقول ستراوسون في كتاب «الكائن والهوية وبحوث أخرى» عام ١٩٩٧: «لا نستطيع أن نأمل في فهم اللغة language كما يأمل المنظّر في فهمها، اللهم إلا إذا فهمنا الكلام speech. ولا نستطيع أن نأمل في فهم الكلام اللهم إلا إذا أخذنا بعين الاعتبار هدف الاتصال»(٣٠).

وقد يكون في وسعنا الآن أن نوجز المسائل التي اتفق عليها أصحاب النظريات الصورية ونظريات الاستعمال في المعنى والمسائل التي اختلفوا عليها. ولعل أبرز المسائل التي اتفقوا عليها هي:

١ – تحكم اللغة قواعد دلالية وتركيبية، وهذه القواعد تحدد معاني الجمل فيها، وتسمى معاني الجمل في هذه الحالة بالمعاني اللغوية.

٢ – هناك علاقة بين مقاصد المتكلمين للغة والمعاني اللغوية للجمل التي يستخدمها المتكلمون.

٣ – الجملة هي الحامل الأساسي للمعنى أو الوحدة الأساسية للمعنى. فالجمل في النظريات الصورية هي حوامل القضايا التي تنقل ما يجوز أن يكون صادقاً أو كاذباً. والجمل في نظريات الاستعمال هي حوامل أفعال الكلام ومركز مقاصد المتكلمين.

أما أهم المسائل التي اختلفوا عليها فهي:

١ – ركز أصحاب النظريات الصورية على البنية الصورية للغة. على حين ركز أصحاب نظريات الاستعمال على اللغة الطبيعية من حيث هي كذلك.

٢ – يضع أصحاب النظريات الصورية توكيداً كبيراً على بنية الجملة، على حين يضع أصحاب نظريات الاستعمال توكيداً أساسياً على اعتقادات المتكلمين ومقاصدهم.

٣ – يرى أصحاب النظريات الصورية أن تفسير معنى الجملة يأتي في المقام الأول، وبعد ذلك يأتي تفسير المعنى لدى المتكلم، وهذا يعني أن اللغة تفسر قبل الكلام. أما أنصار نظرية الاستعمال فيرون أن تفسير المعنى لدى المتكلم له أسبقية على تفسير معنى الجملة. وهذا يعني أن الكلام يفسر قبل اللغة.

٤ - المعنى لدى المتكلم

٤-١- التمييز بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي:

من نافلة القول إن كلمة «المعنى» وما دار في فلكها من كلمات مثل «يعني» و«ذو معنى» هي من الكلمات الغامضة في العربية والإنجليزية وغيرهما من اللغات. وهذا الغموض ناشئ من تعدد معاني الفعل «يعني» كما هو الحال في الأمثلة الآتية:

١ - الحياة لا تعني شيئاً بعد رحيل من نحبّ.

٢ - أنا لا أعني جرح مشاعرك.

٣ - إنه يعني القدر بالنسبة لها.

٤ - وجود الدخان يعني وجود النار.

٥ - عندما قال محمد إن «مشكلة المعنى معقدة» كان يعني أن مشكلة المعنى معقدة.

٦ - الجملة الإنجليزية "the cat is on the mat" تعني أن القطة على الحصير.

٧ - أحمد يعني شيئاً ما.

٨ - هذه العلامة تعني شيئاً ما.

تأمل أولاً الجملتين (٧) و(٨) ودع عنك بقية الجمل؛ لأنها سوف تكون مدار تحليل في الصفحات الآتية، تجد أنه إذا كانت الجملة (٧) صادقة، فمن المرجح أن أحمد يفعل شيئاً ما. وليس الأمر هكذا مع الجملة (٨)؛ لأنه إذا كانت هذه الجملة صادقة، فإن العلامة (لا تفعل) شيئاً. وإذا كانت (٨) صادقة، فإننا لا نجانب الصواب عندما نقول إن العلامة «ذات معنى». وليس الأمر هكذا مع الجملة (٧)؛ لأنها إذا كانت صادقة فإننا لا نقول مطلقاً إن أحمد (له معنى)[٣١].

ولم يكن غريباً إزاء مثل هذه الاستخدامات المتباينة للفعل «يعني» أن يستهل جرايس مقالته «المعنى» عام ١٩٥٧ بالتمييز بين معنيين يجوز أن تتخذهما التعبيرات

«يعني» و«يعني شيئاً ما» و«يعني أن». والحق أن هذه المقالة شقت طريقاً جديداً نحو معالجة المعنى، ونوقشت على نطاق واسع في الكتابات الفلسفية، ويعاد نشرها في جميع الكتب التي تجمع النصوص الفلسفية ذات المستوى الرفيع في فلسفة اللغة ولا تقلّ أهميتها وأثرها عن المقالات التي تعدّ من «كلاسيكيات» الفلسفة المعاصرة مثل مقالة كواين «عقيدتان للتجريبية» عام ١٩٥١» ومقالة ويلفرد سيلارز Wilfrid Sellars (١٩١٢-١٩٨٩) المطولة «التجريبية وفلسفة العقل» ١٩٥٦ التي أصبحت تطبع في طبعات مختلفة على هيئة كتاب مستقل لعل أشهرها الطبعة التي قدّم لها ريتشارد رورتي Richard Rorty (١٩٣١-   ) بمقدمة قيمة ونشرت في عام ١٩٩٧.

أطلق جرايس على المعنى الأول اسم «المعنى الطبيعي» natural meaning وضرب له الأمثلة الآتية:

١ - هذه البقع تعني الحصبة.

٢ - هذه البقع لا تعني شيئاً بالنسبة لي، ولكنها تعني الحصبة بالنسبة للطبيب.

٣ - الميزانية الحالية تعني أننا سوف نشهد عاماً صعباً.

وهذا النوع من المعنى نسميه أحياناً المعنى الدال indicator-meaning على أساس أن البقع «تدل على» وجود الحصبة، والدخان «يدل على» وجود النار، ونحو ذلك.

ويشير جرايس إلى جملة من الملامح التي تميز هذا المعنى[٣٢]:

أولاً - لا نستطيع القول «هذه البقع تعني الحصبة، ولكنه لم يصب بالحصبة»، وكذلك لا نستطيع القول «الميزانية الحالية تعني أننا سوف نشهد عاماً صعباً، ولكننا لن نشهده». وهذا يعني القول: س تعني أن ق، و«س تعني أن ق يستلزم ق»، حيث ترمز (س) إلى موضوع أو موضوعات وترمز (ق) إلى قضية؛ فالقول هنا يستلزم وجود واقعة معينة.

ثانياً - لا نستطيع البرهنة من الجملة «هذه البقع تعني الحصبة» على أية نتيجة تتعلق بما هو مقصود بهذه البقع. على سبيل المثال، لست مؤهلاً للقول

«المقصود بهذه البقع هو أنه مصاب بالحصبة»، ويمكن أن نقول أيضاً إننا لا نستطيع أن نبرهن من الجملة «وجود الدخان يعني وجود النار» على أية نتيجة تتعلق بما هو مقصود بالدخان.

ثالثاً – لا نستطيع البرهنة من الجملة «هذه البقع تعني الحصبة» على أية نتيجة تتعلق بما يعنيه شخص أو آخر بهذه البقع، وكذلك لا نستطيع البرهنة من الجملة «هذا الرعد يعني أنه ستوجد عاصفة» على أية نتيجة تتعلق بما يعنيه شخص أو آخر بهذا الرعد.

رابعاً – لا يمكن أن توجد إعادة صياغة للأمثلة السابقة يكون فيها الفعل «يعني» متبوعاً بعبارة في علامتي اقتباس، ومن ثم فإن الجملة «هذه البقع تعني الحصبة» لا يمكن إعادة صياغتها بوصفها هذه البقع تعني (الحصبة) أو «هذه البقع تعني (أنه مصاب بالحصبة)».

خامساً – يمكن أن توجد إعادة صياغة للأمثلة المذكورة تبدأ بالتعبير «الحقيقة أن...» على سبيل المثال «الحقيقة أن البقع التي لديه تعني أنه يعاني من الحصبة» و«الحقيقة أن الميزانية الحالية كما هي تعني أننا سوف نشهد عاماً صعباً».

وهذا «المعنى الطبيعي» يتعارض مع نوع آخر من المعنى يسميه جرايس «المعنى غير الطبيعي» ويضرب له المثالين الآتيين:

١ – «هذه الرنّات الثلاث في جرس الباص تعني أن الباص ممتلئ».

٢ – «هذه الملاحظة (زيد لا يمكن أن ينجح من غير عناء أو كفاح) تعني أن زيداً وجد أن زوجته لا غنى عنها».

وعلى خلاف ملامح المعنى الطبيعي نجد أن ملامح المعنى غير الطبيعي هي(٣٣):

أولاً – أستطيع استعمال الجملة الأولى من هاتين الجملتين وأواصل القول «ولكنه ليس ممتلئاً في الحقيقة، لقد أخطأ محصل التذاكر»، وأستطيع استعمال الجملة الثانية وأواصل القول «ولكن زيداً هجرها منذ بضع سنوات خلت». وهذا يعني القول: س تعني أن ق، و س تعني أن ق لا تستلزم ق.

ثانياً – نستطيع البرهنة من الجملة الأولى على عبارة حول «المقصود» برنّات الجرس، ويمكن فعل ذلك عن طريق القياس بالنسبة للجملة الثانية.

ثالثاً – نستطيع البرهنة من الجملة الأولى على نتيجة مفادها أن شخصاً ما (محصل التذاكر) يعني بالرنّات أن الباص ممتلئ.

رابعاً – يمكن إعادة صياغة الجملة الأولى في صيغة يكون فيها الفعل «يعني» متبوعاً بعبارة في علامتي اقتباس، أعني «هذه الرنّات الثلاث للجرس تعني (الباص ممتلئ) ويمكن أن نفعل ذلك بالنسبة للجملة الثانية.

خامساً – إن جملة مثل «واقعة أن الجرس رنّ ثلاث مرات تعني أن الباص ممتلئ» ليست إعادة صياغة لمعنى الجملة الأولى. ربما تكون الجملتان صادقتين ولكنهما لا تملكان المعنى نفسه على وجه التقريب.

والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو: لماذا يسمي جرايس المعنى الذي يمثله المثالان السابقان بالمعنى غير الطبيعي؟ الجواب لأول وهلة هو أن فكرة الاصطلاح (أو المواضعة) convention تميز المعنى غير الطبيعي من المعنى الطبيعي. فليس من الاصطلاح في شيء أن البقع تعني الحصبة، على حين أن القول بأن الرنات الثلاث في الباص تعني أن الباص ممتلئ يعد مسألة اصطلاحية. وقد يختلف الاصطلاح من جماعة إلى أخرى ومن مكان إلى آخر.

ولكن فكرة الاصطلاح هذه تأخذنا إلى سؤال آخر هو: لماذا لم يستخدم جرايس لتمييزه بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي التمييز التقليدي بين العلامات الطبيعية natural signs والعلامات الاصطلاحية conventional signs؟ ويضرب التمييز التقليدي بجذوره في كتابات جون لوك، وتشارلز بيرس، وتشارلز موريس، ودي سوسير؛ فقد قسم بيرس العلامات من حيث علاقتها بالموضوع الذي تدل عليه إلى ثلاثة أنماط هي: الأيقونة icon والمؤشر index والرمز symbol. فالأيقونة علامة تناظر الموضوع الذي تدل عليه أو تشبهه أو تصوره، ومثالها في اللغة التسمية بالمحاكاة الصوتية onomatopoeia، مثل العواء والزئير والأزيز

والنقيق. أما المؤشر أو العلامة الطبيعية، فإن ظهوره يرتبط ارتباطاً سببياً أو وجودياً بموضوعه. فصياح الطائر ربما يكون علامة طبيعية على الذعر. وأما الرمز، أو العلامة الاصطلاحية، فإنه يفتقر إلى أي تناظر فيزيائي مع ما يدل عليه، ويتجلى بصورة نموذجية في صيغ اللغة الطبيعية، فكلمة «العنقاء» مثلاً لها دلالة لا تأتي عن طريق كونها تشبه موضوعها، ولا تدل عن طريق علاقة وجودية مع موضوعها، وإنما تدل عن طريق تداعي المعاني عند أولئك الذين يستعملون هذه الكلمة»[٣٤].

والسبب الذي جعل جرايس يفضل تمييزه على التمييز التقليدي هو أن بعض الأشياء التي تعني شيئاً غير طبيعي لا تكون علامات (فالكلمات مثلاً ليست علامات)، وبعض الأشياء لا تكون اصطلاحية بأي معنى عادي (مثل بعض الإيماءات)، على حين أن بعض الأشياء التي تعني بصورة طبيعية لا تكون علامات لما تعنيه (مثل الميزانية الحالية)[٣٥]. وهذا يعني أن جرايس أراد من تحليله للمعنى غير الطبيعي أن يشمل مجالاً أوسع من المعنى اللغوي الاصطلاحي.

لعلك تلحظ أن المعنى الطبيعي هو المعنى الذي تملكه الأشياء في الطبيعة؛ فالدخان يدل على النار، والسحب تدل على المطر، والجرح يدل على الأذى، والرعد يدل على العاصفة. أما المعنى غير الطبيعي فتملكه كلماتنا وعباراتنا وبعض أفعالنا وإيماءاتنا أيضاً. وكان في طليعة الاختلافات بين هذين النوعين من المعنى أنه على حين أن «س تعني بصورة طبيعية أن ق «تستلزم ق، فإن هذا اللزوم يخفق بالنسبة للمعنى غير الطبيعي؛ وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن المعنى الطبيعي ملزم، بمعنى أنه يلزم المتكلم بحقيقة واقعة معينة. فأنت إذا قلت «هذه السحب السوداء تعني المطر»، فسوف تلزم نفسك بحقيقة واقعة، وهي أن السماء سوف تمطر. أما المعنى غير الطبيعي فليس ملزماً. فإذا قلت: «إن إيماءة محمد تعني أنه في ضيق» فإن هذا القول لا يلزمك بأن يكون محمد في ضيق بالفعل. وجملة القول إن المعنى الطبيعي يعتمد على العلاقات السببية وقوانين الطبيعة، أما المعنى غير الطبيعي فيعتمد على القصد intention أو الاصطلاح convention.

وفي مقابلة متأخرة «معاودة النظر في المعنى» meaning revisited عام ١٩٨٢، نظر جرايس في التمييز بين المعنى الطبيعي والمعنى غير الطبيعي، ولم يحرص على مناقشة مسألة وجوده لأنه أصبح مقبولاً ومألوفاً في الدرس الفلسفي، وإنما حرص كل الحرص على بيان العلاقة بين المعنيين، أو قل إنه ركز على العلاقات بين المعنيين أكثر من الاختلافات بينهما؛ فالمعنى غير الطبيعي سليل المعنى الطبيعي ومشتق منه، ويمكن تفسير ذلك عن طريق التأمل في حالات خاصة للمعنى الطبيعي مثل الأنات والصرخات. خذ الأنين، مثلاً، تجد أنه علامة طبيعية على الألم عندما يحدثه المرء بصورة لا إرادية. فالأنين الحادث بصورة لا إرادية سوف يقود الملاحظ إلى الاعتقاد بأن الشخص الذي يئن يتألم. ولكن المرء ربما يئن «بصورة إرادية» في بعض الحالات، وأكثر هذه الحالات وضوحاً حالة الخداع أو التظاهر. ولكن نظراً لأننا نربط بين الأنين الحادث بصورة إرادية والخداع، فسوف تضعف نزعة الملاحظ لاستنتاج أن الشخص الذي يئن يتألم[٣٦]. ولو تساءل المرء: متى يتم الانتقال من المعنى الطبيعي إلى المعنى غير الطبيعي؟ لأجاب جرايس بأن الانتقال في هذه الحالة يتم عندما يحدث الأنين بصورة إرادية، ويظل الملاحظ يعتبر هذا سبباً كافياً للاعتقاد بأن الذي يئن يتألم ولا يعتبره دليلاً على الخداع؛ ويتحقق هذا عندما يئن المرء بصورة إرادية، ويقصد أن يدرك الملاحظ أنينه على أنه فعل إرادي، ويدركه الملاحظ من حيث هو كذلك. ويرى جرايس أن الانتقال من المعنى الطبيعي إلى المعنى غير الطبيعي يتحقق تحققاً كاملاً عندما ينظر الملاحظ (أو المستمع بصفة عامة) إلى الشخص الذي يئن (أو المتكلم بصفة عامة) على أنه جدير بالثقة.

فرغ جرايس في صدر مقالته «المعنى» من وضع التمييز، وكرّس جلّ جهده في بقيتها للنظر في الحالات التي ندعي فيها أن كلمة «يعني» تستخدم بالمعنى غير الطبيعي بوصفه مقابلاً للمعنى الطبيعي.

ويقترح أن نبدأ تحليل المعنى غير الطبيعي بالصيغ الآتية:

١ - «س يعني شيئاً ما بالمعنى غير طبيعي» (حيث س منطوق).

٢ - «ص يعني شيئاً بالمعنى غير الطبيعي» (حيث ص هو المتكلم).

ولكن الصيغ التي تأتي على هذا النحو يلفها غموض يمكن التغلب عليه بالصيغ الآتية:

١-أ- س (المنطوق) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

١-ب- س (المنطوق) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

٢-أ- ص (المتكلم) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي عن طريق س (في مناسبة معينة).

٢-ب- ص (المتكلم) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد) عن طريق س.

وإذا أخذنا بنية الكلام بعين الاعتبار، وجدنا أن صيغ التحليل تزداد تعقيداً لأننا لا بد من أن نفسح المجال أمام تحليل المنطوق في الحالتين (١-أ) و(١-ب) ونحصل على ما يلي:

(١-أ-١) س (منطوق كامل) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

(١-أ-٢) ز (جزء من المنطوق) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (في مناسبة معينة).

(١-ب-١) س (منطوق كامل) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

(١-ب-٢) ز (جزء من المنطوق) يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (الخالد).

إن أصحاب النزعة الشكية في المعنى بصفة عامة، وبعض الفلاسفة الذين يرون أن أفضل طريق لفهم مفهوم المعنى ليس التحليل المفهومي بطريقة جرايس وغيره من الفلاسفة وإنما بناء نظرية في المعنى، يستبد بهم القلق إزاء تعقد التحليل بهذه الصورة. فهناك معنى للمنطوق utterance meaning، وهناك معنى لدى الناطق utterer's meaning أو معنى لدى المتكلم، وهناك معنى في مناسبة، وهناك معنى خالد (أو لا يخضع للزمن). ولكن جرايس تحلّى بصبر جميل، واقترح أن نرتب خطوات السير، فنبدأ بمعالجة المنطوق الكامل قبل معالجة المنطوق الجزئي، وهذه البداية تنسجم مع

استخدامه الواسع لمعنى «المنطوق»؛ إذ يستخدمه ليشمل السلوك اللغوي وغير اللغوي على حد سواء. والسلوك اللغوي يتمثل في الجمل والعبارات، أما السلوك غير اللغوي فيتضمن الإيماءة بالرأس والتلويح باليد والغمز بالعين والابتسامة، وهلم جرا.

وقد كان من الأفضل في رأي جرايس أن نفسر معنى المنطوق الكامل في مناسبة محددة قبل أن نحاول تفسير معنى المنطوق الكامل على نحو خالد. وبعبارة أخرى إن تحليل معنى المنطوق في مناسبة يسبق المعنى المعياري standard meaning للمنطوق. وتنسجم هذه الأسبقية أيضاً مع اهتمامه بالتصور الواسع للمعنى غير الطبيعي. فالمعنى المعياري أو الخالد يكتسب عناية خاصة عندما يكون اهتمامنا هو اللغة، ولكن كما أراد جرايس أن يؤكد ليس كل المعنى يحدث في اللغة؛ فخارج اللغة يكون المعنى خاصية للمنطوق في مناسبة(٣٧)، بالمعنى الواسع الذي أوضحناه لكلمة منطوق.

وما دام جرايس يعطي أولوية لمعنى المناسبة occasion meaning على المعنى الخالد timeless meaning استناداً إلى رؤيته الواسعة للمعنى باعتباره ظاهرة لغوية تتجاوز نطاق اللغة أيضاً، فقد كان من الطبيعي أن يستهل تحليله للمعنى غير الطبيعي بالتعبير الآتي: يعني المتكلم (ص) شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي بالمنطوق (س) في مناسبة معينة للاستعمال.

لقد اتخذ تحليل جرايس لمفهوم المعنى غير الطبيعي صوراً متنوعة، وسار في طرق عسيرة ملتوية، وأظن أنه من الأفضل أن نستقصي هذه الصور، وأن نساير التحليل في هذه الطرق ولا نقنع بالقول إن التفصيلات معقدة. وحسبنا أن نبلغ شيئاً من الوضوح في نهاية الطريق، ومتى بلغ الناس كل ما يريدون! وسوف نضع هذه الصور المتنوعة للتحليل على هيئة الصيغ الآتية:

الصيغة الأولى:

«يعني المنطوق (س) شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي» هي صيغة صادقة إذا قصد الناطق لـ (س) أن يحدث اعتقاداً في مستمع ما. وقول ما هو الاعتقاد هو قول

ما يعنيه (س) بالمعنى غير الطبيعي[٣٨]. خذ مثلاً الجملة «زيد رئيس قسم نشيط» التي أوجهها إلى قيس الزائر لقسمي، تجد أن الشرط الكافي لبيان المعنى غير الطبيعي لهذه الجملة هو: يقصد ناطق الجملة أن يحدث الاعتقاد لدى قيس بأن زيداً رئيس قسم نشيط. على أن قصد إحداث الاعتقاد في المستمع ليس كافياً بذاته لحالة المعنى غير الطبيعي. وهنا نجد أنفسنا أمام سلسلة طويلة من الأمثلة المضادة لتحليل جرايس للمعنى.

المثال المضاد الأول يقدمه جرايس نفسه، ويقول فيه: «ربما أترك وشاح (ب) على مقربة من مسرح الجريمة لكي أقنع المحقق بالاعتقاد بأن (ب) هو القاتل. ولكننا لا نريد القول: إن الوشاح (أو تركي له هناك) يعني أي شيء بالمعنى غير الطبيعي أو أنني أعني بصورة غير طبيعية بتركي إياه أن (ب) هو القاتل»[٣٩]. والسبب في أننا لا نقول إن الوشاح، أو تركه بهذه الطريقة، يعني شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي هو أن التواصل بين تارك الوشاح والمحقق لم يحدث. ويتضح ذلك عندما نقارن بين الحالة التي يترك فيها شخص على نحو مقصود وشاح شخص آخر في مسرح الجريمة، والحالة التي يسقط فيها من شخص وشاحه من غير قصد في الوقت الذي يفر فيه من مسرح الجريمة، وفي الحالتين سوف يملك المحقق اعتقاداً واحداً وهو أن صاحب الوشاح هو المجرم. ولكن المشكلة هنا هي أننا لا نستطيع أن نميز المعنى غير الطبيعي من المعنى الطبيعي.

ويمكن أن نتفادى هذا المثال المضاد للصيغة الأولى إذا أضفنا إلى عناصر التحليل في هذه الصيغة شرطاً آخر في صيغة أخرى:

الصيغة الثانية:

يعني المتكلم (ص) شيئاً ما إذا وفقط إذا نطق (ص) المنطوق (س) قاصداً:

(أ) أن نطق ص للمنطوق (س) يحدث اعتقاداً أو استجابة معينة (ج) لدى مستمع معين (ل).

(ب) أن يدرك (ل) قصد (ص).

إن إضافة الشرط القائل بأن يقصد الناطق أن يدرك المستمع القصد الكامن وراء المنطوق ربما تجعلنا نتغلب على المثال المضاد، ولكن هذه الصيغة الثانية ليست كافية بذاتها بصورة جيدة للإمساك بالجانب الاتصالي في المعنى غير الطبيعي. تأمل مثالاً مضاداً آخر: لقد تركت قطع التحف التي حطمتها ابنتي الصغيرة ملقاة في جوانب المنزل لكي تراها زوجتي. يبدو أننا هنا أمام حالة تستوفي الشروط التي قدمناها حتى الآن للمعنى غير الطبيعي: فأنا قصدت أن أجعل زوجتي تعتقد بأن ابنتي حطمت التحف، وليس من شك في أنني قصدت أيضاً أن تدرك زوجتي أنني قصدت أن تعتقد بأن ابنتي حطمت التحف؛ ومع ذلك فإننا لا نملك هنا حالة للمعنى غير الطبيعي، والسبب هو فقدان الصلة بين إدراك المستمع لقصد المتكلم والاستجابة التي يقصد أن يمتلكها المستمع. ويرى جرايس أن الشيء الذي نريد اكتشافه هو الاختلاف بين أن تدع شخصاً ما يعرف (أو تجعل شخصاً ما يفكر) وأن (تخبره)، وفكرة الإبلاغ أو الإخبار ضرورية للمعنى غير الطبيعي.

وهذا يعني أن تحليل المعنى يفتقر إلى شرط يضمن أن يتوقف التواصل بصورة أساسية على إدراك المستمع لقصد المتكلم. وعند هذه المرحلة من التحليل يلخص جرايس تقريره عن المعنى غير الطبيعي لدى المتكلم بالطريقة الآتية: يعني (المتكلم) (ص) شيئاً ما بالمعنى غير الطبيعي (بالمنطوق) (س) يكافئ تقريباً «قصد (ص) بنطق (س) أن يحدث أثراً في المستمع عن طريق إدراك هذا القصد» ويجوز أن نضيف أن التساؤل عما يعنيه (ص) هو التساؤل عن تحديد الأثر المقصود[٤٠].

ويمكن أن ندخل شرط إدراك المستمع لقصد المتكلم في الصيغة الآتية:

الصيغة الثالثة:

يعني المتكلم (ص) شيئاً ما عن طريق نطق (س) إذا وفقط إذا نطق (س) قاصداً:

(١) أن نطق (ص) لـ (س) يحدث اعتقاداً أو استجابة معينة (ج) في مستمع معين (ل).

(٢) أن يدرك (ل) قصد (س) المتمثل في (١).

(٣) أن إدراك (ل) لقصد (س) المتمثل في (١) سوف يعمل على الأقل بوصفه جزءاً من السبب الذي لدى (ل) للاعتقاد أو الاستجابة (ج).

إذا أعدنا النظر في مثالنا «زيد رئيس قسم نشيط» وجدنا يسراً في تحليله وفقاً لهذه الشروط على النحو الآتي:

١ - يقصد المتكلم بنطق الجملة «زيد رئيس قسم نشيط» أن يحدث في المستمع (قيس) اعتقاداً بأن زيداً رئيس قسم نشيط.

٢ - يقصد المتكلم أن يدرك قيس القصد من وراء نطق الجملة «زيد رئيس قسم نشيط».

٣ - يقوم إدراك قيس لمقاصد المتكلم بدور تفسير السبب في أن قيساً يألف الاعتقاد بأن زيداً رئيس قسم نشيط.

٤-٢- هل التحليل كافٍ؟

يبدو أن الصيغة الثالثة ذات الشروط الثلاثة قد اقتربت بنا من إدراك الجانب الاتصالي من المعنى غير الطبيعي، ولكن هيهات هيهات أن تصل بنا إلى تحليل كامل لهذا المعنى. وتعليل ذلك واضح وبسيط وهو أننا لا نستطيع القول إن الشروط الثلاثة المقررة في هذه الصيغة كافية sufficient بالاشتراك معاً أو ضرورية necessary على انفراد بالنسبة للمعنى غير الطبيعي لدى المتكلم. ولم يكد جرايس يعرض تحليله للمعنى حتى أتته الأمثلة المضادة من كل صوب، وهي تسعى إلى بيان أن استيفاء هذه الشروط لا يكفي وحده للمعنى لدى المتكلم. وسوف نبحث أبرز الأمثلة المضادة التي قدمها فلاسفة عرفوا بإسهاماتهم في نظرية المعنى.

المثال المضاد الأول ساقه أرمسون J.O.Urmson (وهو من أعضاء فلاسفة أكسفورد) في حديث مع جرايس، وسجله جرايس في مقالته «المعنى والمقاصد لدى الناطق»؛ ومفاد المثال: هب أن جندياً في الحرب تمكن منه الأعداء فأسروه، واعتقدوا أن لديه بعض المعلومات المهمة التي رأوا ضرورة في أن يكشفها لهم. وهو يعرف أنهم

يريدون منه تقديم هذه المعلومات. ولكي يتحقق لهم ما يريدون يخضعونه للتعذيب بأدوات يضغط بها على الإبهام[٤١].

ونلاحظ في هذا المثال أن الشروط الثلاثة في الصيغة الثالثة للتحليل التي تتلاءم مع «إنهم يعنون شيئاً عن طريق استخدام أدوات الضغط على الإبهام (أنه لا بدّ من أن يخبرهم بما يودون معرفته» قد استوفيت، وهي:

١ - يستعمل المعتقلون أدوات التعذيب مع الأسير بقصد إحداث استجابة معينة تتمثل في تقديم المعلومات التي يملكها.

٢ - يقصد المعتقلون أن يدرك الأسير أنهم يقصدون بتعذيبه إحداث هذه الاستجابة.

٣ - يقصد المعتقلون أن الأسير تحت وطأة التعذيب سوف يقدم المعلومات المرومة، وأن ذلك سينتج جزئياً على الأقل من إدراكه لمقاصد المعتقلين له.

وعلى الرغم من استيفاء هذه الشروط، فليس من الصواب في شيء القول إن المعتقلين عندما يستعملون أداة التعذيب يعنون أن الأسير سوف يخبرهم بالمعلومات، أو أنهم يعنون شيئاً على الإطلاق. وهم لا يعنون شيئاً لأن أداة التعذيب لا تكشف عن مقاصدهم، إذ إنها لا تزيد عن أن تكون دافعاً لمعرفة الأسير بهذه المقاصد. وإذا شئنا أن نتفادى هذا المثال المضاد، فلا بدّ من أن نضيف إلى عناصر التحليل شرطاً مؤدّاه أن يدرك المستمع من المنطوق مقاصد المتكلم إدراكاً جزئياً على الأقل. ولقد عبر «شيفر» عن تحليل المعنى الذي ينطوي على هذا الشرط بالصيغة الآتية:

الصيغة الرابعة:

يعني المتكلم (ص) شيئاً ما عن طريق المنطوق (س) إذا وفقط إذا قصد (ص) بنطق (س) ما يلي:

(١) أن يملك (س) ملمحاً (أو ملامح) معيناً (م).

(٢) أن يدرك المستمع (ل) أن (س) يملك (م).

(٣) أن يستدل (ل) بصورة جزئية على الأقل من الحقيقة القائلة إن (س) هو (م) على أن (ص) نطق (س) قاصداً:

(٤) أن (ص) عندما ينطق (س) يحدث استجابة (ج) في (ل)، و

(٥) أن إدراك (ل) لقصد (ص) المتمثل في (٤) لا بد من أن يعمل بوصفه جزءاً على الأقل من السبب الذي لدى (ل) للاستجابة (ج)[٤٢].

وفي هذه الصيغة يعتمد إدراك المستمع لقصد المتكلم على إدراك المستمع لملمح من المنطوق، والمراد بملمح المنطوق النغمة التي ينطق بها، والتي قد ترتفع في مناسبة وقد تنخفض في مناسبة أخرى؛ ومن ملامح المنطوق أيضاً أن يكون قادراً على حمل المعنى سواء في جانبه الصوتي أو التركيبي، وعندما يقصد المتكلم أن يدرك المستمع جانب حمل المعنى في المنطوق، فإن هذا يفترض الفهم المشترك الذي هو أساس عملية التواصل بين الذوات.

ونستطيع أن نقسم الأمثلة المضادة لكفاية تحليل المعنى لدى المتكلم إلى فئتين واسعتين: أمثلة الفئة الأولى تشبه مثال الأسير الذي ناقشناه آنفاً، وهذه الأمثلة لا تمثل خطراً شديداً على التحليل طالما أنه يمكن تكييفها معه عن طريق تقديم ملامح المنطوق. أما أمثلة الفئة الثانية فإنها تصيب التحليل في صميمه، ومن ثم يتعذر تكييفها معه. ومن ناحية ثانية، نستطيع أن نقسم الأمثلة المضادة أو الاعتراضات على تحليل المعنى لدى المتكلم إلى نوعين: الاعتراضات من النوع الأول تهدف إلى إثبات أن التحليل ضعيف للغاية أو ليس صارماً بصورة كافية، والاعتراضات من النوع الثاني تهدف إلى إثبات أن التحليل صارم أكثر مما ينبغي إلى درجة أن الشروط الواردة فيه تستبعد حالات واضحة من المعنى الطبيعي لدى المتكلم؛ والسؤال الآن هو: هل نستطيع التغلب على مثل هذه الأمثلة المضادة من غير أن نضيف إلى التحليل شروطاً غير ضرورية؟

لقد أثار ستراوسون مسألة عدم كفاية التحليل في مقالته «القصد والاصطلاح في أفعال الكلام» intention and convention in speech acts عام ١٩٦٤ (وأعيد

نشرها في كتابه «مقالات منطقية – لغوية» عام ١٩٧١). وذهب فيها إلى أن تحليل جرايس للمعنى هو في المقام الأول تحليل لموقف يحاول فيه شخص أن يتواصل مع آخر بالمعنى الأساسي لكلمة «التواصل» بالنسبة لأية نظرية في المعنى. ولكن ستراوسون يقدم مثالاً مضاداً تستوفى فيه جميع الشروط الواردة في تحليل المعنى، ومع ذلك لا يمثل صورة للتواصل بالمعنى الذي أراده جرايس.

ويضع ستراوسون مثاله المضاد على النحو الآتي: يقصد شخص ما (س) أن يحدث في شخص آخر (ل) الاعتقاد بحقيقة معينة (ق). وهذا يعني استيفاء الشرط الأول في التحليل الثلاثي الأصلي لدى جرايس، وينظم (ص) دليلاً مقنعاً للرؤية على أن (ق) في مكان يراه فيه (ل). وهو يفعل ذلك ويعرف أن (ل) يراقب عمله، ولكنه يعرف أيضاً أن (ل) لا يعرف أن (ص) يعرف أن (ل) يراقب عمله، وهو يدرك أن (ل) لن يعتبر الدليل المنظم دليلاً حقيقياً أو طبيعياً على أن (ق) ولكنه يدرك ويقصد بالفعل أن يعتبر (ل) تنظيمه للدليل أساساً للتفكير بأن (ص) يقصد أن يحدث في (ل) الاعتقاد بأن (ق)، وهذا يعني أنه يقصد أن يدرك (ل) قصده (الشرط الأول)، ومن ثم فإنه يستوفي الشرط الثاني، ويعرف (ص) أن (ل) لديه أسباب عامة للتفكير في أن (ص) لن يرغب في أن يجعله يفكر – أي (ل) – في أن (ق)، اللهم إلا إذا كان معروفاً لـ (ص) أن (ق) حقيقة واقعة. وعلى هذا النحو فإن إدراك (ل) قصد (ص) لإحداث الاعتقاد في (ل) بأن (ق)، سوف يبدو في الحقيقة بالنسبة إلى (ل) سبباً كافياً للاعتقاد بأن (ق). ويقصد (ص) بالفعل أن إدراك (ل) لقصده (الشرط الأول) سوف يعمل بنفس هذه الطريقة، ومن ثم يستوفي الشرط الثالث(٤٣).

ويمكن التعبير عن مثال ستراوسون بطريقة تنسجم مع الصيغة الرابعة لتحليل المعنى على النحو الآتي:

يقصد (ص) بفعل معين أن يجعل (ل) يعتقد بأن (ق) (الشرط الرابع)؛ وينظم (ص) دليلاً مقنعاً للرؤية على أن (ق) في مكان يراه فيه (ل) (الشرط الأول). وينظم (ص) هذا الدليل وهو يعرف أن (ل) يراقب عمله، ويعرف أيضاً أن (ل) لا

يعرف أن (ص) يعرف أن (ل) يراقبه. ويدرك (ص) أن (ل) لا يعتبر الدليل المنظم دليلاً طبيعياً على أن (ق)، ولكن (ص) يقصد أن ينظر (ل) إلى تنظيمه للدليل كأساس للاعتقاد بأن (ص) يقصد أن يحدث في (ل) الاعتقاد بأن (ق) (الشرط الثاني والثالث)، ويعرف (ص) أن (ل) مقتنع بثقته وأن (ل) يعتقد أن (ص) لا يريد أن يعتقد بأن (ق)، اللهم إلا إذا كانت (ق) حقيقة واقعية. ومن ثم فإن إدراك (ل) لقصد (ص) بأن يجعله يعتقد بأن (ق) هو السبب في اعتقاده بأن (ق) (الشرط الخامس).

والنتيجة التي يريد أن يخلص إليها ستراوسون هي أن تحليل جرايس في صورته السابقة لا يمثل حالة للاتصال. والمشكلة هنا هي أنه بالرغم من أن (ل) سوف يعتبر بالفعل أن (ص) يحاول أن يجعل (ل) يدرك حقيقة معينة (أي يعتقد بأن ق)، فإن (ل) لا ينظر إلى (ص) على أنه يعرف شيئاً ما أو يخبره بشيء ما. وعائق التواصل هنا يؤدي إلى الافتقار إلى الصراحة بين (ص) و(ل) حول ما يحدث. واقتراح ستراوسون للتغلب على هذا العائق هو: «يبدو أن الشرط الإضافي عند الحد الأدنى لمحاولة (ص) فعل هذا [أي التواصل مع (ل)] هو أن (ص) لا يقصد فقط أن يدرك (ل) قصده ليجعل (ل) يعتقد أن (ق) ولكن لا بد من أن يقصد أيضاً أن يدرك (ل) قصده ليجعل (ل) مدركاً لقصده أن يجعل (ل) يعتقد أن (ق)[٤٤].

ويمكن إدخال هذا الشرط في تحليل المعنى غير الطبيعي بالطريقة الآتية:

الصيغة الخامسة:

(ص) يعني شيئاً ما بنطق (س) إذا وفقط إذا نطق (س) قاصداً:

(١) أن يملك س ملمحاً معيناً.

(٢) أن يدرك (ل) أن (س) له ملمح معين.

(٣) أن يستدل (ل) جزئياً على الأقل من الحقيقة القائلة إن (س) ملمح (م) على أن (ص) نطق (س) قاصداً.

(٤) أن نطق (ص) لـ (س) يحدث الاستجابة (ج) في (ل).

(٥) أن إدراك (ل) لقصد (ص) (المتمثل في ٤) سوف يعمل بوصفه جزءاً على الأقل من السبب الذي لدى (ل) للاستجابة (ج).

(٦) أن (ل) لا بدّ من أن يدرك قصد (ص) (المتمثل في ٣).

صحيح أن إضافة الشرط (٦) تجعل التحليل يتفادى المشكلة التي أظهرها مثال ستراوسون المضاد، ولكن ستراوسون رأى أن التحليل لا يكفي للمعنى غير الطبيعي حتى بعد إضافة هذا الشرط، واقترح أن التحليل لا بدّ من أن يتضمن شرطاً يضمن شيئاً من الصراحة بين المتكلم والمستمع أو المرسل والمتلقي، وإلا فإن المشكلة من النوع الذي كشف عنه مثال ستراوسون المضاد ربما تعاود الظهور.

ومن سوء الطالع أن ستراوسون كان على صواب؛ فسرعان ما ظهرت الأمثلة المضادة التي تحاول إثبات أن الشروط الواردة في الصيغة الخامسة ليست كافية للمعنى لدى المتكلم(٤٥).

ولعل أبرز الأمثلة على عدم كفاية التحليل مثال جون سيرل الذي يقول فيه: «هب أنني جندي أمريكي في الحرب العالمية الثانية، وأن الجنود الإيطاليين قد أسروني. ولنفترض أيضاً أنني أود أن أجعل هؤلاء الجنود يعتقدون بأنني ضابط ألماني وذلك بغية أن يطلقوا سراحي. وما أريد أن أفعله هو أن أخبرهم بالألمانية أو الإيطالية أنني ضابط ألماني. ولكن لنفترض أنني لا أعرف قدراً كافياً من الألمانية أو الإيطالية لفعل ذلك، ومن ثم فأنا أحاول اصطناع علامة لإخبارهم بأنني ضابط ألماني عن طريق إلقاء أجزاء قليلة من الألمانية التي أعرفها، ويراودني الأمل في أنهم لا يعرفون الألمانية بالقدر الذي يكفي لإدراك حقيقة خطتي. ودعنا نفترض أنني لا أعرف من الألمانية إلا بيتاً واحداً، والذي أتذكره من قصيدة كنت أحفظها في المدرسة الثانوية من مقرر اللغة الألمانية. وعلى هذا النحو فأنا الأمريكي الأسير أخاطب الجنود الإيطاليين الذين أسروني بالجملة الآتية(٤٦): "Kennst du das Land, wo die Zitronen bluhen?". هنا نطق الجندي جملته وقصد بها أن يجعل الإيطاليين يعتقدون بأنه ضابط ألماني، وأراد أن يكوّنوا هذا الاعتقاد بمقتضى إدراكهم لهذا القصد، ولكن هل بنطقه لهذه الجملة الألمانية «يعني أنه» ضابط ألماني؟ الجواب عند سيرل لا.

«في هذه الحالة يبدو من الخطأ بوضوح القول إنه عندما أنطق الجملة الألمانية، فإن ما أعنيه هو: أنني ضابط ألماني» أو حتى "Ich bin ein deutscher Offizier"، لأن ما تعنيه الكلمات هو «هل تعرف منطقة تزهر فيها أشجار الليمون؟». وبطبيعة الحال أريد أن أخدع من أسروني بالتفكير في أن هذا هو ما تعنيه الكلمات التي أنطقها بالألمانية»(٤٧).

والسبب في أن تحليل جرايس يقبل مثل هذه الأمثلة المضادة هو أنه يعاني من عيبين في رأي سيرل. فأما العيب الأول فهو أنه يعجز عن تفسير النطاق الذي يمكن أن يكون عليه المعنى موضوعاً للقواعد أو الاصطلاحات. فهذا التقرير لا يثبت العلاقة بين المعنى الذي يكون لدى المرء عن شيء ما عن طريق ما يقوله المرء وبين ما يعنيه ما يقوله المرء في اللغة. وأما العيب الثاني فهو أن التقرير – عن طريق تعريف المعنى في حدود التأثيرات المقصودة – يخلط بين الأفعال المتضمنة في الكلام illocutionary acts (وهذا المصطلح من ابتكار أوستن، والسابقة il تعني in في، وكلمة locution تعني speech الكلام) والأفعال عن طريق الكلام perlocutionary acts (وهذا مصطلح من ابتكار أوستن أيضاً، والسابقة per تعني عن طريق أو بواسطة).

ولو تأملنا في العيب الأول، لوجدنا أن سيرل كان على الصواب في هذه النقطة التي أوجزها بقوله: «المعنى أكثر من أن يكون مسألة قصد، إنه أيضاً مسألة اصطلاح أحياناً على الأقل»(٤٨).

Meaning is more than matter of intention; it is also at least sometimes a matter of convention.

وفي موضع آخر يوافق سيرل على التمييز بين معنى الجملة والمعنى لدى المتكلم، ويرى أن معنى الجملة يتحدد عن طريق معاني الكلمات وترتيبها وفقاً لقواعد اللغة. ويقول في كتابه «العقل واللغة والمجتمع» عام ١٩٩٨: «إن ما يعنيه المتكلم بنطق الجملة هو بصورة تامة – داخل حدود معينة – أمر يتعلق بمقاصده وأقول داخل حدود معينة عن عمد، لأنك لا تستطيع أن تقول بدقة أي شيء وتعني أي شيء. فأنت لا تستطيع أن تقول «اثنان زائد اثنين تساوي أربعة» وتعني أن شكسبير شاعر

بارع جيد إلى جانب كونه كاتباً مسرحياً»[٤٩]. والقول إن المعنى مسألة تتعلق بالاصطلاح بالإضافة إلى القصد سوف يأخذه أتباع جرايس بعين الاعتبار عندما يضيفون فكرة الاصطلاح إلى تحليل المعنى لدى المتكلم بغية الوصول إلى المعنى اللغوي.

وانظر إلى العيب الثاني تجد اختلافاً في نظرة جرايس وسيرل إلى الفعل الكلامي الذي يكون موضوعاً لقصد المتكلم. تكشف أمثلة جرايس عن أن قول شيء ما ومعناه هو مسألة قصد إنجاز فعل عن طريق الكلام؛ إذ ينجز المرء فعلاً كلامياً (للسؤال) إذا نطق جملة قصد بها أن يقدم المستمع إليه بعض المعلومات. وينجز المرء فعلاً كلامياً (للتقرير) إذا نطق جملة قصد بها أن يجعل المستمع يعتقد بفكرة أو قضية معينة. وهكذا نلحظ أن التأثير الذي يقصد المتكلم أن يحدثه في المستمع هو في رأي جرايس ما يميز فعلاً كلامياً (السؤال مثلاً) من فعل كلامي آخر (التقرير مثلاً).

ولكن سيرل لا يرى هذا الرأي، ويؤكد على أن قول شيء ما معناه هو مسألة قصد أداء فعل متضمن في الكلام، ويقول إنه ليس من الحق في شيء أن التأثيرات المقصودة بصفة عامة للمنطوقات المع هي تأثيرات عن طريق الكلام، لأنّ كثيراً من أنواع الجمل المستخدمة لإنجاز أفعال متضمنة في الكلام لا تملك تأثيراً عن طريق الكلام يكون مرتبطاً بمعناها. على سبيل المثال، لا يوجد تأثير عن طريق الكلام مرتبط بالترحيب. إذ عندما أقول لك «أهلاً» وأعنيها فأنا لا أقصد بالضرورة أن أحدث فيك فعلاً أحرى من معرفة أنك في مقام الترحيب. ولكن هذه المعرفة هي ببساطة «فهمك» لما قلت، وليست استجابة أو أثراً إضافياً»[٥٠].

وإذا شئنا أن نوضح اعتراض سيرل على تحليل جرايس وتعديله بحيث يتخلص من العيوب التي أسلفناها، فلا بدّ من التمييز بين التأثير المتضمن في الكلام illocutionary effect والتأثير عن طريق الكلام perlocutionay effect. التأثير المتضمن في الكلام هو التأثير الذي يكون إلى حد ما مضموناً للقصد المتضمن في الكلام، حيث يكون القصد المتضمن في الكلام هو القصد الذي يتحقق ببساطة على

أساس إدراك المستمع لحضور القصد. ولو نظرنا في أمثلة التأثيرات المتضمنة في الكلام مثل «محمد تلقى تحذيراً»، لوجدنا أن المطلوب لحدوث التأثير هو إدراك المستمع أن المتكلم لديه القصد الملائم. فإذا أدرك محمد قصدي لوعده عندما أقول «أنا أعدك» فإنه قد وعد بهذا القول. «أن التأثير في المستمع ليس اعتقاداً أو استجابة، وإنما يكمن ببساطة في فهم المستمع لمنطوق المتكلم. وهذا التأثير هو الذي أسميه التأثير المتضمن في الكلام illocutionary effect»[٥١].

والتأثير عن طريق الكلام هو الذي يكون إلى حد ما مضموناً للقصد عن طريق الكلام، حيث القصد عن طريق الكلام هو القصد الذي لا يتحقق ببساطة على أساس إدراك المستمع لحضور القصد. وأمثلة ذلك هي «محمد اقتنع»، «محمد ضحك»، «محمد أزعج». وفي مثل هذه الحالات نجد أن إدراك المستمع (محمد) أن المتكلم لديه القصد لا يضمن حدوث التأثير؛ إذا أدرك محمد قصدي لأن أقنعه عن طريق الجملة فربما يخفق في الاقتناع. وقل مثل هذا في بقية الحالات.

وإذا أخذنا نقد سيرل بعين الاعتبار، وأدركنا أن القصد الاتصالي في رأي جرايس هو قصد انعكاسي reflexive؛ بمعنى أن المتكلم يقصد الاتصال بالمستمع عن طريق إدراك المستمع لقصد المتكلم، كان في مقدورنا أن نقول مع «تايلور» هناك ثلاثة أسباب جيدة للتفكير في أن المعنى لدى المتكلم يجب تحليله في حدود مقاصد لأداء أفعال متضمنة في الكلام أحرى من مقاصد لأداء أفعال عن طريق الكلام[٥٢]:

١ – هناك كثرة من الأفعال المتضمنة في الكلام من غير تأثير مقصود عن طريق الكلام. وقد أوضحنا ذلك بمثال التحية.

٢ – في الحالات التي توجد فيها علاقة مطردة بين الفعل المتضمن في الكلام والتأثير عن طريق الكلام يظل الاثنان قابلين للانفصال من حيث المبدأ. فنحن نقصد بصورة نموذجية أن يعتقد الآخرون في تقاريرنا المخلصة. ولكن الغاية المتضمنة في الكلام من وراء التقرير ليست بصورة نموذجية بلوغ هذا التقارب في الاعتقاد. فالمرء يستطيع أن يقرر أن ق حتى عندما لا يقصد أن يصل المستمع إلى الاعتقاد بأن ق. ويمكن أن نضرب لذلك مثالاً يوضحه:

يستطيع المرء الذي يعيش في مجتمع يمنع أفراده من تقرير أشياء تخالف الأمور السائدة أن يتحدى السلطات ببساطة عن طريق تقرير الشيء الممنوع، سواء قصد هذا المرء أن يعتقد أي شخص آخر فيما يقرره أو لم يقصد.

٣ - إن المقاصد لأداء الأفعال عن طريق الكلام لا تتحقق بالطريقة «الانعكاسية» التي تتحقق بها المقاصد لأداء الأفعال المتضمنة في الكلام.

وفي هذه النقطة الأخيرة تتبين إحدى أوجه الاختلاف بين الأفعال المتضمنة في الكلام والأفعال بواسطة الكلام. وأخص ما تمتاز به الأفعال المتضمنة في الكلام هو أن المتكلم يؤديها بقصد انعكاسي، بمعنى أن الأداء الناجح لهذه الأفعال لا يتحقق، اللهم إلا إذا أدرك المستمع القصد الحقيقي للمتكلم. ولعل هذا هو ما حدا بأوستن إلى القول إن أداء الفعل المتضمن في الكلام يستلزم «التأكد من الفهم»(٥٣). ولكن إدراك المستمع لقصد المتكلم لا يضمن وحده حدوث التأثير في حالة الفعل عن طريق الكلام. فإذا قصدت أن أجعلك تعتقد بأنني أفضل مرشح لنيل الجائزة، فينبغي عليَّ أن أفعل شيئاً أكثر من مجرد أن أجعلك تدرك قصدي.

وهكذا نرى أن سيرل لا يريد من نقده لجرايس تفنيداً لتحليله للمعنى، وإنما يريد تعديله وتطبيقه في معالجة نظرية أفعال الكلام لمشكلة المعنى. وحسبنا بياناً لهذه النقطة التي قد لا يكتمل الفهم فيها أن نورد عبارة سيرل في واحدة من مقالاته المتأخرة «الفلسفة المعاصرة في الولايات المتحدة» عام ١٩٩٦، ويقول فيها: «إن فلاسفة مثل كواين وتلميذه الأول دونالد ديفيدسون يشعرون دائماً بأن النظريات القصدية intentionalistic theories في المعنى، من النوع الذي يقترحه جرايس وسيرل غير كافية فلسفياً»(٥٤).

ولا غرو إذن أن يضيف سيرل إلى الشروط التي وضعها جرايس لتحليل المعنى غير الطبيعي لدى المتكلم الشرطين الآتيين(٥٥):

١ - أن تكون مقاصد المتكلم متضمنة في الكلام.

٢ - أن يقصد المتكلم مراعاة الاصطلاحات والقواعد التي تحكم استعمال التعبير أو الجملة التي ينطقها في لغة معينة.

كان الحل المقترح لمواجهة أي مثال مضاد لتحليل المعنى عند هذه المرحلة هو إضافة شرط جديد إليه. ولكن هذا الحل ينطوي على صعوبة، وهي أنه لا يسد الطريق أمام الأمثلة المضادة الجديدة؛ وهذا يعني أن تزويد التحليل بمقاصد إضافية لا يمثل سوى خطوة دفاعية. ولكن الشيء المطلوب هو أن نزود التحليل بشرط يضمن له الكفاية.

وفي هذا السياق، اقترح ستيفن شيفر شرط المعرفة المتبادلة mutual knowledge[٥٦]. ومؤدى هذا الشرط أن المتكلم (ص) والمستمع (ل) يعرفان بصورة متبادلة أن ق إذا وفقط إذا كان (ص) يعرف أن ق، وكان (ل) يعرف أن ق، ويعرف (ص) أن (ل) يعرف أن ق، ويعرف (ل) أن (ص) يعرف أن ق، ويعرف (ص) أن (ل) يعرف أن (ص) يعرف أن ق، ويعرف (ل) أن (ص) يعرف أن (ل) يعرف أن ق، وهلم جرا. وعلى الرغم من أن التعبير «وهلم جرا» يتيح لنا أن نكرر شروط المعرفة تكراراً غير محدود، ومن ثم نكون معه في وضع أفضل مما كنا عليه من قبل، فإنه تعبير خلافي لأنه يتضمن تراجعاً. وهذا التراجع قد يضر شرط المعرفة المتبادلة مثلما أضر التراجع بالشروط الدفاعية الإضافية للقصد التي أسلفنا الإشارة إليها.

ولكن شيفر دافع عن التراجع الداخل في شرط المعرفة المتبادلة ورأى أنه تراجع «غير مؤذ تماماً»[٥٧]. ويضرب لنا مثلاً يوضح ظاهرة المعرفة المتبادلة ويدفع عنها شيئاً من الشك، ويعطي شيئاً من الثقة في الطبيعة غير المؤذية للتراجع المتضمن في هذه المعرفة. يقول المثال[٥٨]: هب أن اثنين من الناس (أ) و(ب) يجلسان إلى مائدة وبينهما شمعة. ولو افترضنا أن (أ) و(ب) يتمتعان بقدرات حسية وإدراك حسي طبيعي وذكاء طبيعي أيضاً، وأن عيونهما مفتوحة معاً، لكان في وسعنا القول إنهما يعرفان معاً أن هناك شمعة أمامهما. زد على ذلك إذا أخذنا هذه الافتراضات بعين الاعتبار، كان في مقدورنا القول إن كلاً منهما يعرف أن الآخر يعرف أن هناك شمعة أمامه «وهلم جرا». وهذا التراجع ليس مؤذياً طالما أنه يتضمن معرفة يعتقد اعتقاداً لا يثير خلافاً بأن اثنين من الناس أو أكثر ربما يملكها الواحد عن الآخر في مواقف

معينة وملامح عامة لهذه المواقف. ويأخذ شيفر هذه النقطة مأخذ التسليم، ويزيد عليها بالقول إن الظاهرة التي يوضحها جلوس اثنين من الناس بينهما شمعة هي ظاهرة عامة لا تعتمد على أية ملامح خاصة برؤية الشمعة. وهنا نصل إلى الفكرة اليسيرة التي نبتغيها من وراء المثال، وهي أن ظاهرة المعرفة المتبادلة توجد أيضاً في حالات الاتصال بين الناس، وأن هذه المعرفة لا يعكر صفوها ما تنطوي عليه من تراجع. ولعل الذي أدى إلى ظهور الأمثلة المضادة لتحليل المعنى التي أثارها ستراوسون، وتلاحقت من بعده، هو الافتقار إلى مثل هذه المعرفة المتبادلة.

ومن سوء الطالع أن شرط المعرفة المتبادلة تعرض لانتقادات كثيرة، جاء بعضها من شيفر نفسه عندما تراجع في كتاباته الأخيرة عن مشايعة نظرية جرايس في المعنى[٥٩]. وحسبنا أن نشير إلى بعض الحالات التي يفتقر فيها الاتصال بين الناس إلى هذه المعرفة المتبادلة، فربما يجلس شخص يتمتع بإدراك حسي بصري عادي إلى مائدة وتقع عيناه على شمعة أمامه، ولكنه يعجز عن معرفتها أو إدراكها إدراكاً كاملاً؛ لأنه ربما يكون مستغرقاً في حلم من أحلام اليقظة أو ربما يفكر في أمر ألَمَّ به.

ولم يقع شرط المعرفة المتبادلة من جرايس موقع الرضا، وإنما اقترح أن نسد الطريق أمام التراجع اللامتناهي وتوالي الأمثلة المضادة عن طريق إضافة شرط إلى التحليل يمنع أن يملك المتكلم ما سماه «المقاصد المراوغة» sneaky intentions. والقصد المراوغ هو الذي يضلل المستمع بحيث يجعله يتوصل إلى اعتقاد معين نتيجة لإدراك ملمح معين في منطوق المتكلم، بينما تكون المقاصد الحقيقية لدى المتكلم مختلفة تماماً. ولكن جرايس لم يكشف بصورة واضحة ومقنعة عن مدى الشفافية المطلوبة بين المتكلم والمستمع وفقاً لهذا الشرط. ويمكن أن نضيف إلى الشروط الستة الواردة في الصيغة الخامسة الشرط الآتي:

٧ – لا يقصد (ص) أن يخدع (ل) فيما يتعلق بالمقاصد السابقة.

٤-٣- هل التحليل ضروري؟

تبين لنا مما أسلفناه أن الانتقادات التي انصبت على «كفاية» تحليل المعنى كانت تهدف إلى إثبات أن الشروط الواردة فيه ضعيفة إلى درجة أنها تفتقر إلى شروط أخرى. ولكن نقد تحليل المعنى لم يتوقف عند كفايته، وإنما امتد إلى ضرورته أيضاً؛ فهناك انتقادات تنصب على «ضرورة» التحليل وتسعى إلى بيان أن الشروط الواردة فيه قوية أكثر مما ينبغي، بمعنى أنها تستبعد حالات صحيحة للمعنى لدى المتكلم، ومن ثم فإنها تثير السؤال: هل التحليل ضروري؟ ونحن نجد أشياء يفعلها المتكلمون العاديون بالجمل ولا تندرج تحت صيغ التحليل التي أوردناها. وهذا يدل على أن هناك حالات من المعنى لا تستوفي شروط التحليل. وتستطيع أن تقسم الأمثلة المضادة لضرورة التحليل إلى نوعين أساسيين: أحدهما يتضمن أمثلة لا يقصد فيها المتكلم أن يحدث استجابة في مستمع معين، والآخر يتضمن أمثلة تكشف عن جانب من اللامعقولية في اشتراط التحليل أن يقصد المتكلم إحداث استجابة في المستمع عن طريق إدراك المستمع لقصد المتكلم.

وها هي بعض الأمثلة المضادة من النوع الأول:

١ - تدوين اليوميات.

٢ - التدريب على الكلام والمحادثة.

٣ - مناجاة النفس.

٤ - كتابة الملاحظات لتوضيح مشكلة معينة.

وما كان رد جرايس على هذه الأمثلة إلا أن اقترح تعديل التحليل بحيث يتضمن القول إن المتكلم يقدم منطوقه بقصد أن يحدث استجابة معينة في ظروف ملائمة في مستمع له خاصية معينة.

ونوع الخاصية الذي يعنيه جرايس هنا يتضمن أن يكون المستمع عابر سبيل يرى الملاحظة المكتوبة، أو يكون المستمع متطفلاً فيقرأ هذه اليوميات، أو يكون

متطابقاً مع المتكلم (كما هو الحال في مناجاة النفس). والتحليل المعدل بهذه الصورة يشمل حالات من المعنى لدى المتكلم حيث[٦٠]:

١ - يعتقد المتكلم أنه ربما يوجد في زمن مقبل شخص معين يصادف منطوقه.

٢ - يدعي المتكلم أنه يخاطب مستمعاً متخيلاً.

٣ - يقصد المتكلم أن يحدث استجابة معينة في مستمع غير محدد.

لو عدنا إلى شروط التحليل التي أوضحناها، لوجدنا أنه يشترط أن يقصد المتكلم أن يحدث استجابة في المستمع، وأن يتحقق ذلك عن طريق إدراك المستمع لقصد المتكلم. ولكن النوع الثاني من الأمثلة المضادة لضرورة التحليل يحاول إثبات أن هناك حالات من المعنى لدى المتكلم حيث يملك المتكلم قصداً لإحداث استجابة معينة، ولكن المتكلم لا يقصد - من بين ما يقصد - أن جزءاً من السبب في استجابة المستمع هو أن المتكلم يقصد إحداث هذه الاستجابة في هذا المستمع.

وها هي بعض الأمثلة:

١ - الامتحان، الأستاذ: متى فرض الله صيام رمضان؟

التلميذ: فرض الله صيام رمضان لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة.

٢ - الاعتراف، الأم: الإنكار لا يفيدك في شيء، أنت كسرت الزجاج.

الابن: نعم، كسرته.

والمتكلم الذي يعنينا في مثل هذه الحالات هو التلميذ والابن. وهنا نجد أنه من الصواب القول إن التلميذ يعني أن ق. ولكن ليس من الصواب القول إن التلميذ يقصد أن يعتقد الأستاذ بأن ق. وبعبارة أخرى يعني التلميذ أن الله سبحانه وتعالى فرض صيام رمضان لليلتين خلتا من شهر شعبان من السنة الثانية للهجرة، ولكن التلميذ لا يقصد أن يعتقد الأستاذ أن الله قد فرض ذلك. وقد يتساءل المرء لماذا لا يقصد التلميذ ذلك؟ والجواب ببساطة هو اعتقاده بأن الأستاذ يعرف الإجابة بالفعل. وهناك حالات أخرى من قبيل أن يعطي عابر سبيل توجيهات إلى السائح، ولا يبالي بما إذا

كان السائح يعتقد فيما يقوله أم لا، أو أن يلقي الأستاذ محاضرته ولا يقصد أن يحدث في الطالب الاعتقاد بأن الأستاذ يعتقد في مضمون المحاضرة.

وناقش شيفر هذه الأمثلة المضادة مناقشة تفصيلية، واقترح أنه في حالات مثل (١) و(٢) ربما يقال إن المتكلم يعني شيئاً ما بالمعنى الواسع أو الضعيف المستمد من المعنى الأساسي الذي نجده في التحليل. وفي الحالة (١) يقترح شيفر أن الطالب يعني شيئاً بالمعنى الواسع؛ لأنه يقدم منطوقه كما لو كان «يخبر» معلمه إخباراً حقيقياً بشيء ما. وفي الحالة (٢) ربما يقال إن الابن يعترف كما لو كان «يخبر» أمه بشيء ما. وفي حالة عابر السبيل يمكن القول بأنه على حين يبدو المتكلم غير مكترث، ربما يملك بشكل قابل للجدل قصداً خاطفاً أو زائلاً لإحداث الاعتقاد في المستمع، أما في حالة محاضرة الأستاذ فيقترح جرايس إعادة كتابة تحليل المعنى بطريقة تلائم الحقيقة القائلة إن المتكلم يقصد تنشيط اعتقاد المستمع بشيء معين، وهو ما سماه جرايس الاعتقاد المنشط activated belief، ومن ثم يجوز القول إن الأستاذ (بصورة مثالية على الأقل) يجعل الطالب يفهم أن قضايا معينة هي نتائج لقضايا أخرى يعتقد بها الأستاذ بالفعل[٦١]. وأنت ترى إذن أن تحليل المعنى لدى المتكلم لم يفقد قوته، وأنه يمكن أن يتلاءم مع هذه الأمثلة المضادة سواء جاءت الملاءمة عن طريق إعادة النظر في الأمثلة وفهمها فهماً دقيقاً أو عن طريق تنقيح التحليل وتعديله.

٤-٤- هل التحليل دائري؟

قدم مارك بلاتس Mark Platts في كتابه «طرق المعنى» اعتراضين على تحليل جرايس: مفاد الاعتراض الأول أن هناك دائرية في تقارير جرايس وأنصاره، ومؤدى الاعتراض الثاني أن تحليل جرايس لا يقدم شيئاً ذا بال حول الجمل غير المنطوقة في اللغات الطبيعية. يبدأ الاعتراض الأول بملاحظة أن اكتشاف ما يملكه المرء من مقاصد يستلزم بصورة نموذجية ما تعنيه التعبيرات في اللغة. يقول بلاتس: «إن مقاصد المتكلمين لا يتم إدراكها عن طريق حدس لا يخطئ... وربما يكون ممكناً

اكتشاف المقاصد البسيطة جداً بطريقة شبه سلوكية. ولكن هذا لا يكون معقولاً ببساطة بالنسبة للمقاصد التي تكون معقدة بعض الشيء، ولا يكون المرشد السلوكي دقيقاً أيضاً. وأي تفسير لكيفية إدراك هذه المقاصد سوف يعول – لا محالة – على إدراك المستمع للمعنى الحرفي للجملة. وهذا المعنى هو الطريق إلى مقاصد المتكلم، والرحلة العكسية عادة ما تكون مستحيلة»[٦٢].

ولنضرب لهذا الاعتراض مثلاً يوضحه، وبالمثال يتضح المقال كما يقال. عندما أعني بصورة غير طبيعية أن فتجنشتين فيلسوف عبقري عن طريق نطقي للجملة «فتجنشتين فيلسوف عبقري»، فإن ذلك يتطلب أن أملك مقاصد معينة، ويتطلب أيضاً أن أقصد أن من يستمع إليّ لا بدّ من أن يدرك هذه المقاصد. وعلى هذا النحو فإن إدراك من يستمع إليّ أنني أعني بصورة غير طبيعية أن فتجنشتين فيلسوف عبقري يتطلب أن يدرك أنني أملك هذه المقاصد. ولكن هذا الإدراك يأخذ سبيله إلى الإنجاز عادة عن طريق فهم المستمع لتعبير لفظي ما عن طريق هذه المقاصد، والذي يتطلب بدوره كونه عارفاً لمعاني هذه التعبيرات. «فالمعنى غير الطبيعي لدى المتكلم لا يمكن توضيحه في حدود مقاصد المتكلم لأن معرفة مقاصد المتكلم «تفترض مسبقاً» معرفة المعنى غير الطبيعي لدى المتكلم»[٦٣].

على أن هذا الاعتراض لا حظّ له من التوفيق، والسبب في ذلك أنه يتجاهل الفكرة الأساسية التي يرتكز عليها تحليل جرايس، وهي أن «المحتوى العقلي سابق على المعنى اللغوي». mental content is prior to linguistic meaning ويوضح مارتن ديفيس Martin Davies هذه الفكرة بقوله:

«إن نوع الأسبقية الذي يعنينا هنا هو أسبقية في ترتيب التحليل أو التوضيح الفلسفي. فالقول بأن الفكرة (س) سابقة أسبقية تحليلية analytically prior على الفكرة (ص) هو القول بأن (ص) يمكن تحليلها أو توضيحها في حدود (س)، على حين أن تحليل (س) ذاتها أو توضيحها لا يشير إلى (ص). ومن ثم عندما نقول إن فكرة الاعتقاد سابقة أسبقية تحليلية على فكرة المعرفة، على سبيل المثال، فإن هذا

يعني القول إن المعرفة يمكن تحليلها في حدود الاعتقاد، على حين أن التحليل الجيد للاعتقاد لا يحتاج إلى إعادة تقديم فكرة المعرفة»[٦٤].

والرأي عند جرايس أن مقاصد المتكلمين سابقة أسبقية تحليلية على معنى الجملة؛ وهذا يعني أن المعنى اللغوي يمكن تحليله في حدود مقاصد المتكلمين التي يعبر عنها باللغة. ولذلك كانت السمة المميزة للنظرية القصدية في المعنى هي أن العقل سابق أسبقية تحليلية على اللغة mind is analytically prior to language. ولا غرو أن نجد أنصار جرايس يعالجون قضايا فلسفة اللغة في إطار فلسفة العقل.

وإذا كان تحليل جرايس يقوم على الأسبقية التحليلية للعقل على اللغة، فهل يلزم عن ذلك أن يقوم أيضاً على أسبقية أنطولوجية أو ابستمولوجية ontological or epistemic priority للعقل على اللغة؟ جوابنا على هذا السؤال بالنفي. وهو جواب نحذو فيه حذو مارتن ديفيس الذي يقول: «لا بدّ من تمييز الأسبقية التحليلية من الأسبقية الأنطولوجية والأسبقية الابستمولوجية. فالقول بأن (س) سابقة أنطولوجيا على (ص) يعني القول بأن (س) يمكن أن توجد من غير (ص)، مع أن (ص) لا يمكن أن توجد دون (س). على سبيل المثال، يجوز القول بصورة معقولة إن الأفراد سابقون انطولوجياً على الأمم. والقول بأن (س) سابقة ابستمولوجية على (ص) يعني القول إنه من الممكن اكتشاف ما يتعلق بـ (س) من غير متابعة عن طريق معرفة ما يتعلق بـ (ص)، على حين أن اكتشاف ما يتعلق بـ (ص) يحدث عن طريق اكتشاف ما يتعلق بـ (س). وعلى هذا النحو يكون من المعقول القول، على سبيل المثال، إن أوضاع الأجسام المادية متوسطة الحجم ومساراتها سابقة ابستمولوجيا على أوضاع الجسيمات الأصغر من الذرة ومساراتها. ونستطيع أن نكتشف ما يتعلق بالأجسام المادية من غير أن نبحث الجسيمات الأصغر من الذرة، ولكن يجوز القول إن طريقنا إلى معرفة ما يتعلق بالجسيمات الأصغر من الذرة عليه أن يمر عبر ملاحظة الأجسام المادية.

ومع تمييز هذه الأنواع الثلاثة من الأسبقية، نستطيع أن نضع الفرض العامل الذي مؤداه أن هذه الأنواع مستقلة بعضها عن بعض استقلالاً منطقياً. وتبعاً لهذا

الفرض يمكن أن نفترض على سبيل المثال، أن الفكرة (س) سابقة أسبقية تحليلية على الفكرة (ص) من غير أن نلتزم بالتمسك بأن (س) سابقة أسبقية انطولوجية أو ابستمولوجية على (ص)»(٦٥).

وأنت ترى إذن أن اعتراض بلاتس الأول لم يبلغ ما أراد، ولم يصب دعوى الأسبقية التحليلية عند جرايس، والتي تعني كما أشرنا أسبقية في ترتيب التحليل أو التوضيح. وتمسك جرايس بالأسبقية التحليلية القائلة إن مقاصد المتكلمين سابقة أسبقية تحليلية على معنى الجملة لم يلزمه بالأسبقية الابستمولوجية التي تقرر إمكانية اكتشاف ما يتعلق بمقاصد المتكلمين من غير حاجة إلى معرفة حقائق تتعلق بمعنى الجملة.

وأما الاعتراض الثاني الذي يسوقه بلاتس فخلاصته: «في نظرية جرايس يعرف معنى الجملة في حدود المقاصد التي تنطق بها الجملة، وربما يضاف إلى ذلك الاستجابة المضمونة بصورة نموذجية في المستمع عن طريق هذا النطق. والآن هذا لا يصلح بوصفه تقريراً عن معاني الجمل في اللغات الطبيعية، والسبب في ذلك بسيط وهو أن الغالبية العظمى من هذه الجمل – وتتضمن اللغات الطبيعية عدداً لا متناهياً من الجمل ولا سبيل إلى حصره – لن تنطق أبداً، ولذلك فإنها لن تنطق بأية مقاصد، ولن يحدث نطقها أية استجابة في المستمع. إذن ما الذي يمكن أن يقوله جرايس عن هذه الجمل غير المنطوقة؟»(٦٦).

ولعل السبيل الوحيد الذي يمكن أن يسلكه جرايس هنا هو أن يحاول تفسير معاني هذه الجمل التي لم تنطق أبداً بأية مقاصد في حدود المقاصد التي سوف تنطق بها، والاستجابات التي سوف تحدثها؛ أي أنه يعرف معاني هذه الجمل في حدود مقاصد افتراضية hypothetical intentions وردود افتراضية. «ولكن جرايس يواجه الآن معضلة: إما أن يوجد قيد على المقاصد والردود الافتراضية أو لا يوجد. إذا كان لا يوجد قيد على الإطلاق، فإن معاني الجمل غير المنطوقة سوف تترك غير محددة بصورة كاملة؛ إذ يمكن أن تعني أي شيء، ومن ثم فإنها لا تعني شيئاً. ومن ثم لا بد من أن يوجد قيد ما»(٦٧).

وإذا وجد هذا القيد، فماذا عسى أن يكون؟ الإجابة التي ربما تكون متاحة أمام جرايس هي: «إن القيد على المقاصد الافتراضية التي يمكن بها نطق جملة، وعلى استجابات المستمع لهذا النطق، هو على وجه الدقة معنى الجملة... ولو صح هذا، فإن محاولة تعريف معاني الجمل غير المنطوقة في حدود المقاصد والاستجابات الافتراضية هي محاولة لا طائل تحتها ولا غناء فيها، لأنها تفترض مقدماً فكرة سابقة عن معنى الجملة»(٦٨).

هناك إذن مشكلة تواجه تحليل المعنى، وهي أنه يقع في الدور طالما أنه يرى أن المقاصد الافتراضية تتقيد بمعنى الجملة؛ ولقد وجه تشومسكي اعتراضاً مماثلاً إلى فكرة الاصطلاح التي نادى بها ديفيد لويس على أساس أن الاصطلاحات متناهية، واللغة تنطلق بعيداً عنها(٦٩).

٥ - النظرية القصدية وبنية الجملة

إن نظرية جرايس في المعنى، التي عرضنا عناصرها المتمثلة في الصور المتنوعة من تحليل المعنى، كانت تهدف إلى تفسير المعنى لدى المتكلم بالنسبة للمنطوقات أو الجمل الكاملة، ولم تقدم شيئاً مذكوراً حتى الآن فيما يتعلق بمعنى أجزاء الجمل. والحق أن مناقشة بنية الجملة قد أرجئت حتى تبلغ النظرية شيئاً من التطور. واعتراض بلاتس الثاني بأن تحليل جرايس لم يقدم تفسيراً لمعنى الجمل غير المنطوقة ناشئ من الحقيقة اللغوية التي تقرر إمكان توليد الجمل في اللغة عن طريق ربط مجموعة متناهية من العناصر الدلالية وفقاً لقواعد معينة. وفي الوقت الذي نجد فيه أن النظرية القصدية في المعنى تواجه صعوبات إزاء تفسير تركيب المعنى أو معنى بنية الجملة، نلحظ أن أخص ما تمتاز به النظريات الصورية في المعنى هو قدرتها التفسيرية في هذه المسألة. وتتجلى هذه القدرة فيما يسمى بمبدأ التركيب principle of compositionality الذي يقدمه فريجة وديفيدسون مثلاً. ويمكن صياغة هذا المبدأ في عبارة يسيرة موجزة:

يتحدد معنى الجملة عن طريق معاني كلماتها المكونة بالإضافة إلى علاقاتها التركيبية بعضها مع بعض.

The meaning of a sentece is determined by the meaning of its component words together with their syntactic relations to eash others.

ولو تأمل المرء فلسفة فريجة مثلاً، لكان من اليسير عليه معالجة الجمل غير المنطوقة – التي هي حجر عثرة أمام النظرية القصدية – عن طريق المبدأين الآتيين[٧٠]:

١ – تتحدد القيمة الدلالية للتعبير المركب عن طريق القيمة الدلالية لأجزائه.

The semantic value of a complex expression is determined by the semantic values of its parts.

٢ – يتحدد معنى التعبير المركب عن طريق معاني مكوناته.

The sense of a complex expression is determined by the senses of its constituents.

ويتضمن التعبير المركب العبارات والجمل وأشباه الجمل، والقيمة الدلالية لجملة هي قيمة صدقها truth value (الصدق أو الكذب). ومن ثمّ فإن قيمة صدق الجملة الصادقة هي الصدق، وقيمة صدق الجملة الكاذبة هي الكذب. وبتطبيق هذين المبدأين – مبدأ التركيب بالنسبة للقيمة الدلالية ومبدأ التركيب بالنسبة للمعنى – يتحدد معنى الجمل المركبة سواء كانت هذه الجمل منطوقة أم غير منطوقة.

والطريقة الواضحة أمام النظرية القصدية للتعامل مع اعتراض بلاتس الثاني المتعلق بالجمل غير المنطوقة، ومشكلة بنية الجملة التي ينشأ منها، هي تعديل تحليل المعنى بحيث تجعله يشير إلى المتكلمين ومقاصدهم، وليس فقط فيما يتعلق بالجمل الكاملة، وإنما يتعلق بأجزاء الجمل أيضاً. وهذه الطريقة اقترحها جرايس في مقالته «المعنى لدى الناطق، ومعنى الجملة، ومعنى الكلمة»؛ والاقتراح هو أن يملك المتكلمون معرفة بما أطلق عليه جرايس اسم «الإجراءات الناتجة» فيما يتعلق بالعناصر المكونة لمنطوق ما (على سبيل المثال «محمد» تدل على محمد) وقواعد ربطها. ومع ذلك هناك مشكلة مع هذا الاقتراح. إنه لا ينسب إلى المتكلمين قدراً كبيراً من المعرفة فحسب، وإنما ينسب إليهم أيضاً امتلاك مفاهيم معينة (على سبيل المثال مفهوم الدلالة denotation) يعتبر امتلاكهم لها أمراً غير محتمل. ولاحظ جرايس هذه المشكلة واقترح أن نسلم بأننا نعرف «بمعنى ما» هذه النتائج. ويعترف بأن الفهم الملائم لما عساه أن يكون هذا المعنى يظل لغزاً لم يحل.

ولعل إخفاق النظرية القصدية في الوصول إلى حل مقنع لمشكلة بنية الجملة يدفع أنصار النظريات الصورية إلى القول إن نظريتهم أقرب إلى الأسس الفلسفية للمعنى من النظرية القصدية. ولكن هذا القول يزيد من التعارض بين النظريتين كما يزيد الحطب الجزل النار تلظياً. وقد يكون من الملائم أن نقول مع «بلاكبورن» إن هذا التعارض قد خفت حدته بفعل الزمن[٧١]. والشيء الذي لا شك فيه هو أن المتكلمين يؤدون أفعالاً قصدية للمعنى توضحها النظرية القصدية توضيحاً حسناً، وأن بنية هذه الأفعال تصورها النظريات الصورية كأحسن ما يكون التصوير.

٦ - المعنى اللغوي

إن تحليل المعنى الذي أسلفناه يهدف إلى تقديم الشروط الضرورية والكافية للمعنى لدى المتكلم، ولكن هل يكفي هذا التحليل لتفسير المعنى اللغوي linguistic meaning؟ الجواب لا. والسبب في ذلك أن جرايس أراد أن يؤسس مفهوم المعنى اللغوي على مفهوم المعنى لدى المتكلم. وهذه الأسبقية للمعنى لدى المتكلم تتفق مع نظرة جرايس لمفهوم المعنى بوصفه أوسع من المعنى اللغوي، ذلك أن المعنى يقع في اللغة وخارجها على حد سواء. ولكن هذه النظرة الواسعة للمعنى لم تمنع جرايس وأنصاره من أن يحددوا لأنفسهم هدفاً نهائياً هو الملاءمة بين تحليلهم للمعنى والمعنى اللغوي.

وهناك قضية لم يناقشها التحليل حتى الآن، وهي أن المعنى اللغوي خالد linguistic meaning is timeless. والمعنى الخالد timeless meaning (أو المعنى الذي لا يخضع للزمن) هو الذي تملكه منطوقاتنا عندما لا ترتبط بمناسبة معينة للنطق، وبعبارة أخرى قل إنه المعنى الذي لا يعتمد على أية مناسبة محددة للاستعمال. وفي هذا الفهم يكون المعنى اللغوي مثالاً للمعنى الخالد، ويكون أيضاً مقابلاً للمعنى لدى المتكلم الذي يرتبط بموقف النطق أو الكلام.

ويناقش جرايس في مقالة «المعنى لدى الناطق، ومعنى الجملة، ومعنى الكلمة» تحليل المعنى الخالد بالنسبة للفرد، ثم يمد هذا التحليل، وينتقل به إلى تفسير المعنى الخالد داخل جماعة من المتكلمين. وعندما نبني المعنى اللغوي بهذه الطريقة نستطيع أن ندرك بصورة أفضل ما هو متضمن في المعنى الخالد. واقتراح جرايس هو أن نحلل المعنى الخالد لدى الفرد عن طريق الاستعانة (بعادة) هذا الفرد في نطق أصوات معينة عندما يقصد أن يعتقد المستمع بشيء معين. والمشكلة هي أن المتكلم ربما يملك وسائل أخرى لجعل المستمع يعتقد بشيء ما، أو ربما يستعمل الكلمات نفسها عندما يقصد أن يعتقد المستمع بشيء مختلف تمام الاختلاف؛ وإن شئت أن

تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن الاستعانة بعادة المتكلم لا هي ضرورية ولا هي كافية للمعنى الخالد(٧٢).

ولم يتابع جرايس تطوير تقريره عن المعنى الخالد، وإنما جاء هذا التطوير على يد شيفر الذي أفاد فائدة كبيرة من إسهام ديفيد لويس David Lewis (١٩٤١ –) في فكرة الاصطلاح (أو المواضعة) convention في كتابه المهم «الاصطلاح: دراسة فلسفية» عام ١٩٦٩؛ وأفاد لويس بدوره من كتابات ديفيد هيوم وبخاصة «رسالة في الطبيعة البشرية». وكان اقتراح شيفر هو أن نجمع فكرة الاصطلاح مع فكرة تحليل المعنى لدى المتكلم بغية تقديم تقرير عن المعنى الخالد (أو اللغوي). واستهل لويس كتابه «القول إن اللغة يحكمها الاصطلاح يعد أمراً هيناً»(٧٣). ولكن العجب في هذه المسائل الهينة هو أن الناس يطمئنون إلى فهمها، ولكننا إذا سألنا عما تعنيه على وجه الدقة استبد بهم القلق من كل جانب.

والحق أن البحث في أصل اللغة وكيفية ارتباط الألفاظ بالمعاني كان موضع نظر وخلاف بين الفلاسفة القدماء. فنجد كراتيليوس في محاورة «كراتيليوس» لأفلاطون يقرر أن اللغة طبيعية، وأن الكلمات تملك معنى طبيعياً، بمعنى أن الاسم الطبيعي يأتي عملية محاكاة صوتية من جانب الإنسان لأصوات الحيوانات والكائنات في الطبيعة، أو أن الاسم الطبيعي يوحي بما يشير إليه من أشياء طبيعية مثل خرير الماء، ودوي الريح، ونقيق الضفادع، ونعيق الغراب، وزئير الأسد، وصهيل الفرس، ونحو ذلك.

ولقد أوضح سقراط وجهة النظر الطبيعية التي تنسب إلى كراتيليوس عن طريق القياس أو التمثيل الآتي:

سقراط: إذن يا هرموجينس، ليس كل إنسان بقادر على أن يعطي اسماً، إنما فقط صانع الأسماء، وهو المشرع الذي هو الأندر وجوداً بين الحرفيين الماهرين.

هرموجينس: حقاً.

سقراط: وكيف يصنع المشرع الأسماء؟ وإلامَ ينظر؟... إلامَ ينظر النجار عند صنع المكوك؟ ألا ينظر إلى ذلك الشيء المتهيَّأ بصورة طبيعية ليعمل كمكوك؟

هرموجينس: بالتأكيد...

سقراط: بالنسبة للأسماء، إذن، ألا ينبغي على مشرعنا كذلك أن يعرف كيف يضع الاسم الحقيقي الطبيعي لكل شيء في أصوات ومقاطع...؟.»[٧٤]

وعلى الرغم من أن أفلاطون أخذ من محاورة «كراتيليوس» بوجهة النظر الطبيعية، فإنه أدرك إخفاق قدرتها التفسيرية في بعض الجوانب مثل تفسير أسماء الأعداد التي لا نهاية لها، ويمكن أن يكمل الاصطلاح النقص في هذه الجوانب. ولكن أرسطو خالف هذه النظرة الطبيعية إلى اللغة، وأكد في كتابه «العبارة» De Interpretatione على أن اللغة اصطلاحية قائلاً: «الاسم صوت منطوق ذو معنى عن طريق الاصطلاح... وأقول «عن طريق الاصطلاح» by convention لأنه لا يكون الاسم اسماً بصورة طبيعية، ولكن فقط عندما يصبح رمزاً»[٧٥].

ونظر الفلاسفة وعلماء اللغة العرب القدامى والمتكلمون في هذه المسألة، وانقسموا إلى فريقين: نادى الفريق الأول بأن أصل اللغة تواضع واصطلاح، وهم أكثر أهل النظر على حد تعبير ابن جني في «الخصائص» وهو من أبرز أنصار هذا الفريق، إلى جانب الفارابي والمعتزلة ومن جرى مجراهم. وقال الفريق الثاني، وهم قلة، إن اللغة وحي وتوقيف، ويمثله الأشاعرة الذين احتجوا بقوله سبحانه وتعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا﴾ (البقرة: ٣١). ومال ابن جني إلى تأويل هذه الآية الكريمة بحيث نفهم منها أن الله سبحانه وتعالى «أقدر آدم على أن واضع عليها... فإن قيل: فاللغة فيها أسماء، وأفعال، وحروف؛ وليس يجوز أن يكون المعلم من ذلك الأسماء دون غيرها مما ليس بأسماء، فكيف خص الأسماء وحدها؟ قيل: اعتمد ذلك من حيث كانت الأسماء أقوى القبل [أي أنواع الكلام] الثلاثة، ولا بد لكل كلام مفيد من الاسم، وقد تستغني الجملة المستقلة عن كلّ واحد من الحرف والفعل، فلما كانت الأسماء من القوة والأولية في النفس والرتبة، على ما لا خفاء به جاز أن يكتفى بها مما هو تال»[٧٦].

ولا يوجد هذا الخلاف بين فلاسفة اللغة في عصرنا، لأن جميع هؤلاء الفلاسفة يسلمون بفكرة الاصطلاح، وعندما يقولون إن اللغة اصطلاحية؛ فإنهم يؤكدون على ارتباط اتفاقي (أو اعتباطي) arbitrary بين الكلمة ومعناها. وترتبط بهذه الفكرة فكرة أخرى مؤداها أن اللغة اصطلاحية بمعنى أنها اعتباطية وتخضع للتحكم العقلي rational أو القصدي intentional من جانب المتكلمين. ويتفق الفلاسفة المعاصرون على الفكرة الأولى، ويختلفون على الفكرة الثانية. ومن الواضح أن الذين يعارضون الفكرة الثانية يعارضون أيضاً النظرية القصدية في المعنى على أساس أن هذه النظرية تنظر إلى المعنى على أنه فاعلية محكومة بالعقل، وتمنح المتكلمين نوعاً من التحكم العقلي على معنى كلماتهم.

ونظر لويس إلى الاصطلاح على أنه إطراء يخلد ذاته على نحو عقلي في السلوك rationally sefl - perpetuating regularity in behaviour. والاصطلاح هو اطراد (ولنرمز له بالرمز ط) في الفعل، أو في الفعل والاعتقاد، يستوفي الشروط الآتية[٧٧]:

١ – كل شخص يطيع (ط).

٢ – يعتقد كل شخص أن الآخرين يطيعون (ط).

٣ – الاعتقاد بأن الآخرين يطيعون (ط) يزود كل شخص بسبب جيد لطاعة (ط).

٤ – هناك تفضيل عام للطاعة العامة لـ (ط).

٥ – هناك إطراء بديل واحد على الأقل سوف يعمل بصورة معقولة.

٦ – الحقائق المذكورة من ١ إلى ٥ هي موضوعات لمعرفة مشتركة (أعني أنها معروفة لكل شخص).

وإذا أضفنا الآن هذه الفكرة عن المواضعة إلى فكرة المعنى لدى المتكلم، كان في مقدورنا أن نقدم تحليلاً للمعنى اللغوي الحرفي (الخالد) أو لمعنى الجملة في الصيغة الآتية:

تعني الجملة (ص) على نحو خالد أن ق في لغة جماعة من الناس إذا ساد في هذه الجماعة اصطلاح لاستعمال (ص) لكي تعني (بطريقة النظرية القصدية في المعنى) أن ق.

ومن هنا جاء الشعار الذي رفعه أنصار جرايس ليدل على نظريتهم في المعنى قائلاً: المعنى لدى المتكلم بالإضافة إلى الاصطلاح يساوي المعنى اللغوي (الحرفي الخالد).

صحيح أن سيرل قد نبه جرايس إلى ضرورة مراعاة اصطلاحات اللغة وقواعد استعمال الجمل في اللغة، ولكنه لا يزال يؤكد على أن الفكرة المحورية في فهم المعنى هي المعنى لدى المتكلم. «إن معنى الجملة هو بصورة تامة مسألة تتعلق باصطلاحات اللغة. ولكن الجمل أدوات للكلام. وهكذا حتى وإن كانت اللغة تقيد المعنى لدى المتكلم، فإن المعنى لدى المتكلم لا يزال هو الصورة الأساسية للمعنى اللغوي، والسبب في ذلك أن المعنى اللغوي للجمل يعمل ليمكن المتكلمين باللغة من استعمال الجمل لتعني شيئاً ما في المنطوقات»[٧٨].

مما سبق يمكن أن نخلص إلى النتائج الآتية: إن المعنى لدى المتكلم يرتبط بمناسبة معينة للنطق، أما المعنى اللغوي فلا يرتبط بمناسبة الكلام، ولذلك يقال إنه خالد. والمعنى لدى المتكلم يتم تفسيره في حدود مقاصد المتكلمين، أما المعنى اللغوي أو معنى الجملة فيتم تفسيره في حدود المعنى لدى المتكلم وفكرة الاصطلاح. ولو أردت عبارة واحدة موجزة غاية الإيجاز تلخص لك صميم نظرية جرايس وتصلح شعاراً لها أيضاً فهاك هي: المعنى اللغوي هو «الاصطلاح بالإضافة إلى القصد» convention plus intention.

٧ - المعنى لدى المتكلم والاقتضاء التخاطبي

٧-١- التمييز بين علم الدلالة وعلم الاستعمال:

يتطابق المعنى لدى المتكلم مع معنى الجملة في بعض الأحيان ويختلف عنه في أحيان أخرى. فأما التطابق فيظهر في العبارات التقريرية والجمل التي تدخل في إطار العلوم الطبيعية، وأما الاختلاف فيأتي بصور متنوعة. خذ مثلاً يوضح ذلك. هب أن الأم سألت يوماً ما «هل تريد مزيداً من القهوة؟» وكان جوابك: «القهوة تبقيني منتبهاً». هنا نجد أن هذا الجواب يمكن أن يفهم بمعنيين: المعنى الأول هو أنك لا ترغب في مزيد من القهوة لأن موعد النوم قد اقترب. والمعنى الثاني أنك تريد مزيداً من القهوة لأنك تود مواصلة العمل وتحتاج إلى أن تظل منتبهاً. والاختلاف واضح إذن بين المعنى الحرفي الاصطلاحي للجملة «القهوة تبقيني منتبهاً» والمعاني الإضافية التي تفهم منها في سياقات معينة. والتمييز بين المعنى الحرفي للجملة والمعنى الإضافي الذي يمكن أن يتولد عنها هو التمييز بين علم الدلالة semantics وعلم الاستعمال pragmatics. وتستطيع أن تقول بحق إن نظرية جرايس في الاقتضاء implicature هي الإسهام الأصيل في كيفية التوصل إلى المعاني الأخرى التي تضاف إلى المعاني الحرفية للجمل. فماذا عساه أن يكون التمييز بين علم الدلالة وعلم الاستعمال؟ وما السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء؟ وما أهميتها الفلسفية؟ وما علاقتها بالنظرية القصدية في المعنى؟

وأنا أقترح ترجمة pragmatics بعلم الاستعمال بدلاً من علم التداول[٧٩] لأن كلمة تداول لها استخدامات واسعة وشائعة مثل تداول العملة أو تداول الأوراق المالية وغيرها. والوقوف على التمييز الدقيق بين العلمين يسوغ ترجمتي لهذا المصطلح. صحيح أن العلمين يهتمان بنقل المعنى من خلال اللغة، وأن التمييز الصارم بينهما من الأمور الخلافية في فلسفة اللغة وعلم اللغة على حد سواء. ولكننا نستطيع أن نعود إلى التمييز المبكر بينهما والذي وضعه تشارلز موريس Charles Morris، أول من ابتكر مصطلح pragmatics، في قوله: «علم الدلالة semantics يعالج علاقة

العلامات... بالموضوعات التي تدل عليها. أما علم الاستعمال pragmatics فيخص علاقة العلامات بمفسريها»[٨٠]. ولقد وضع موريس هذا التمييز في إطار تقسيمه الثلاثي لعلم العلامات semiotics:

١ – النحو (النظم) syntax: وهو دراسة العلاقات النحوية للعلامات signs بعضها ببعض.

٢ – علم الدلالة semantics: يدرس علاقات العلامات بالأشياء التي تنطبق عليها العلامات.

٣ – علم الاستعمال pragmatics: يبحث علاقة العلامات بالمفسرين.

وهذا التمييز الثلاثي لعلم العلامات حظي أيضاً بتأييد من رودلف كارناب Rudolf Carnap (١٨٩١–١٩٧٠) حيث يقول: «إذا وضعنا في بحث إشارة واضحة إلى المتكلم أو مستعمل اللغة بصفة عامة، فإننا ننسب هذا البحث إلى مجال علم الاستعمال pragmatics... وإذا صرفنا الانتباه عن مستعمل اللغة، وحللنا فقط التعبيرات ودلالاتها، فإننا نكون في مجال علم الدلالة semantics. وأخيراً، إذا صرفنا الانتباه عن الدلالات أيضاً، وحللنا فقط العلاقات بين التعبيرات، فإننا نكون في مجال النحو (المنطقي) logical syntax، ويسمى علم اللغة الكامل الذي يتألف من الأجزاء الثلاثة المشار إليها علم العلامات semiotics»[٨١].

وفي موسوعة «روتلدج» Routledge للفلسفة يقول ريكاناتي F.Recanati في مادة «علم الاستعمال»: «قدم الفلاسفة التحليليون إسهامات باقية للدراسة العلمية للغة. فعلم الدلالة semantics (دراسة المعنى) وعلم الاستعمال pragmatics (دراسة اللغة في الاستعمال) مجالان مهمان للبحث اللغوي يدينان في شكلهما للأساس الذي وضعه الفلاسفة»[٨٢].

علم الاستعمال إذن دراسة لغوية تركز على المستعملين للغة وسياق استعمالها في عملية التفسير اللغوي بجوانبها المتنوعة. وينقسم هذا العلم إلى عدة فروع. يبحث الفرع الأول «كيف يحدد السياق معنى قضوياً واحداً وبالنسبة لجملة في مناسبة معينة

لاستعمال هذه الجملة. ونظرية الفعل الكلامي speech act theory هي الفرع الثاني من علم الاستعمال. والفرع الثالث من علم الاستعمال – وهو لا ينفصل انفصالاً تاماً عن الفرع الثاني – هو نظرية التخاطب theory of conversation أو نظرية الاقتضاء theory of implicature[٨٣].

وهناك إجماع بين الفلاسفة، وتواتر في الدرس الفلسفي المعاصر، على أن جرايس هو أول من قدم دراسة نسقية منهجية تعالج الاختلافات بين المعنى لدى المتكلم ومعنى الجملة، وما يقتضيه المتكلم وما تقتضيه الجملة. وفي مقابل مصطلح اللزوم implication في المنطق الذي نلحظ له استعمالات مهمة يأتي في طليعتها استعمالان: أولهما أن اللزوم علاقة بين مجموعة مقدمات ونتيجة تستخرج منها وفقاً لقواعد معينة، وثانيهما أن اللزوم علاقة بين أجزاء قضية شرطية صادقة يسمى الجزء الأول منها المقدم والثاني التالي. نقول في مقابل اللزوم بهذين الاستعمالين (والذي هو جزء من علم الدلالة المنطقي logical semantics الذي يهتم في المقام الأول بقيم صدق الجمل) ابتكر جرايس مصطلح الاقتضاء implicature والفعل implicate[٨٤]. واشتقه من الفعل imply بمعنى يتضمن أو يستلزم، والذي اشتق بدوره من الفعل اللاتيني plicare بنفس المعنى. وإن شئت عبارة موجزة تحدد لك ماهية الاقتضاء قل: إنه يعني عمل المعنى أو لزوم شيء عن طريق قول شيء آخر، أو قل إنه شيء يعنيه المتكلم ويوحي به ويقترحه ولا يكون جزءاً مما تعنيه الجملة بصورة حرفية.

٧-٢- الاقتضاء لدى المتكلم واقتضاء الجملة:

يميز جرايس بين ما يقتضيه المتكلم وما تقتضيه الجملة. وسأسوق لك ثلاثة أمثلة توضح الاقتضاء لدى المتكلم ومثالاً رابعاً يبين اقتضاء الجملة. وهاكم أولاً أمثلة الاقتضاء لدى المتكلم:

المثال الأول:

محمد: أين يمكن أن أحصل على بنزين؟

أحمد: هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع.

إن جواب أحمد على سؤال محمد يوحي بأن محمداً يستطيع أن يحصل على البنزين من المحطة الموجودة عند ناصية الشارع، ولكننا نلاحظ أن أحمد لم (يقل) بالفعل إن محمداً يستطيع الحصول على البنزين هناك. ولا يعني جرايس (بالقول) مجرد نطق كلمات معينة، وإنما يريد قول (إن) شيئاً ما هو الواقع. وما قاله أحمد في هذه الحالة «يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالمعنى الاتفاقي للكلمات (الجملة) التي نطقها»(٨٥) أكثر من ارتباطه بالمعنى لدى المتكلم. فالاقتضاء بأن محمداً يستطيع الحصول على البنزين من المحطة الكائنة عند ناصية الشارع ليس جزءاً من المعنى الحرفي أو الاتفاقي للجملة «هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع».

المثال الثاني:

الفتاة ف: هل تستطيعين الذهاب إلى حديقة الحيوان؟

الفتاة م: يتعين عليَّ أن أستذكر دروسي.

إن جواب (م) يقتضي بأنها لا تستطيع الذهاب إلى الحديقة، ويعدُّ هذا معنى إضافياً يتجاوز المعنى الحرفي لجملتها «يتعين عليَّ أن أستذكر دروسي». ولعلك تتفق معي إذن في القول بأن الاقتضاء شيء يعنيه المتكلم ولا يمثل جزءاً من المعنى الحرفي للجملة، أو قل إن الاقتضاء لدى المتكلم هو المعنى غير المباشر لدى المتكلم: معنى شيء عن طريق معنى شيء آخر.

Speaker implication is indirect speaker meaning: meaning one thing by meaning another.

المثال الثالث:

الأستاذ أ : ما رأيك في مستوى الطالب (ع) في فلسفة اللغة؟

الأستاذ ب: الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائماً على المواعيد.

من الطبيعي القول إن الأستاذ (ب) قصد شيئاً آخر غير ما تعنيه الجملة، وهذا الشيء هو أن الطالب (ع) ليس جيداً في فلسفة اللغة. ولكن الجملة في معناها الحرفي لا تؤدي هذا المعنى ولا تقتضيه أيضاً، وإنما اقتضاه المتكلم فقط. فماذا عساه أن يكون اقتضاء الجملة؟

على الرغم من أن الأستاذ (ب) اقتضى في هذا المثال أن الطالب (ع) ليس جيداً في فلسفة اللغة، فإن الجملة التي استعملها لا تقتضي ذلك بذاتها، وفي معظم السياقات لا يوجد خطأ في استعمال «الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائماً على المواعيد» من غير هذا الاقتضاء.

وعلى العكس من ذلك، فإن الجملة (٤-أ) تقتضي بذاتها الجملة (٤-ب).

المثال الرابع:

(٤- أ) أحمد مريض، ومن ثم يتعين عليه أن يستريح.

(٤-ب) إن كون أحمد مريضاً يستلزم أنه لا بد من أن يستريح.

والجملة الأولى تقتضي الثانية لأن المتكلم لا يستطيع أن يستعمل الأولى استعمالاً ملائماً دون أن يقتضي الثانية. «والاقتضاء التخاطبي للجملة هو شيء يلزم عنها، ولكنه ليس بالمعنى المنطقي الدقيق. فالاقتضاء شيء لا تقرره الجملة تقريراً واضحاً ولكنها توحي به فقط. إنه ليس نتيجة منطقية، وإنما نتيجة غير منطقية بمعنى ما. وهذا لا يعني القول إنه تعسفي أو اعتباطي»[٨٦].

ويميز جرايس بين نوعين من الاقتضاء: الاقتضاء الاتفاقي conventional implicature والاقتضاء التخاطبي conversational implicature. فأما الاقتضاء الاتفاقي فيتولد عن طريق المعنى الاتفاقي للكلمات المنطوقة[٨٧]، مثل كلمة «لكن» أو التعبير و «من ثم» (المثال الرابع)، ولا يتطلب فهمه استدلالاً عقلياً، وإنما يفهم مباشرة. وأما الاقتضاء غير الاتفاقي الذي يعتمد على السياق التخاطبي، كما في الأمثلة الثلاثة الأولى، فإنه اقتضاء تخاطبي، وهو اقتضاء يضعه المرء باستعمال الاستدلال العقلي القائم على قواعد التخاطب.

٧-٣- السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء وأهميتها النظرية:

قبل أن نناقش قواعد التخاطب، يجمل بنا أن نقف عند السياق الفلسفي الذي ظهرت فيه نظرية الاقتضاء لنعرف ما هو، وما النظريات المنافسة لهذه النظرية. لقد

ذهب فلاسفة أكسفورد في الأربعينات من القرن العشرين إلى أن المنطق الكلاسيكي لا يستطيع أن يقدم تفسيراً دقيقاً لدلالة التعبيرات في اللغة الطبيعية، وتجلى ذلك بوضوح في مقال ستراوسون «في الإشارة» On Referring في مجلة Mind (العقل) عام ١٩٥٠، وفي هذا المقال اعترض ستراوسون على نظرية الأوصاف theory of descriptions عند رسل. وكان من بين الاعتراضات أنها لا تقدر الاستعمال العادي للجمل التي تنطوي على تعبيرات وصفية حق قدره. ورأى ستراوسون أيضاً أن نظرية المعنى بالنسبة للغة الطبيعية المؤسسة على المنطق الكلاسيكي ليست دقيقة؛ فنراه يختتم مقاله «في الإشارة» بهذه العبارة: «لا تعطي قواعد أرسطو ولا قواعد رسل المنطق الدقيق لأي تعبير في اللغة العادية، لأن اللغة العادية ليس لها منطق دقيق»[٨٨].

وبعد عامين قدم ستراوسون كتابه «مقدمة لنظرية منطقية» عام ١٩٥٢، وانتقد فيه انتقاداً موسعاً وجهة النظر القائلة إن روابط منطق القضايا أو منطق الأدوات الصورية مثل (٠) و(٧) و(⊂) يستطيع تفسير معاني روابط اللغة الطبيعية المناظرة لها وهي (واو العطف) و(أو) و(إذا).

لاحظ ستراوسون أن العبارة التي تأخذ الصيغة (ق و ك) ربما تستلزم ترتيباً زمانياً، وأن عبارة البدائل التي تأخذ الصيغة (ق أو ك) تستلزم عدم تيقن المتكلم من أي بديل من البديلين، وأن أداة الربط (ولكن) في العبارة «إنها فقيرة ولكنها مستقيمة» تعني أن المتكلم يستلزم أن هناك نوعاً من التباين بين كونها فقيرة وكونها مستقيمة، وأن دخول كلمة «يبدو» في عبارة تحمل شكّاً في الشيء الذي تتحدث عنه. فالعبارة «هذه البرتقالة تبدو صفراء بالنسبة لي» تستلزم شكّاً فيما إذا كانت البرتقالة صفراء بالفعل.

إذا قرر المتكلم (س) جملة في الصيغة (ق أو ك)، فسوف ينظر إلى (س) بصورة نموذجية باعتباره يستلزم أنه لا يملك أسس دوال الصدق للتقرير؛ أعني سوف ينظر إلى (س) باعتباره يستلزم أنه لا يعرف أيّاً من ق و ك تكون صادقة.

وفيلسوف اللغة العادية المتأثر بهذه الملاحظة يجوز أن يستنتج أن نطق (ق أو ك) الذي لا يستوفي هذا الشرط يتضمن إساءة استعمال اللغة؛ وإنه لجزء من معنى (ق أو ك) أن هذا المنطوق يستخدم استخداماً صحيحاً فقط إذا كان المتكلم لا يعرف أن ق صادقة ولا يعرف أيضاً أن ك صادقة؛ وفي حالة عدم استيفاء هذا الشرط، لا يمكن اعتبار المنطوق معبراً عن حقيقة. وهكذا يجوز لفيلسوف اللغة العادية استنتاج أنه من الخطأ افتراض أن معنى الكلمة الإنجليزية or (أو) تقدمة دلالة الأداة المنطقية (٧). إن دلالة (٧) يتعاقد عليها المنطقي بحيث تكون دالة صدق، ولكن دلالة or تتحدد عن طريق الممارسة اللغوية الفعلية (الاستعمال)، وهذه الممارسة لا تنسجم مع تحليل دوال الصدق لدى المنطقي[٨٩].

إن منطق الروابط القضوية أسهم إسهامات مهمة في علم الدلالة المنطقي، وذلك عندما فسر جوانب معينة من معاني روابط اللغة الطبيعية، وهذه الجوانب هي شروط الصدق truth conditions. وشرط الصدق هو الذي بمقتضاه تكون الجملة صادقة، وتحديد شرط الصدق أمر يقوم على المواضعة المنطقية.

ولكي نكتشف عن وجهة نظر ستراوسون في نقد القضايا، يحسن بنا أن نأخذ العطف المنطقي بشيء من التفصيل. تأمل المثال الآتي:

١ - المتنبي شاعر وزكي نجيب محمود فيلسوف.

تجد أن منطق القضايا يقول إن العطف يصدق في حالة واحدة فقط وهي صدق المعطوفين معاً. ونعبر عن ذلك بقائمة الصدق الآتية:

ق	ك	ق . ك
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

ويمكن التعبير عن ذلك بقاعدة صدق العطف في شجرة الصدق على النحو الآتي:

ق . ك

|

ق

ك

وإذا غيرنا ترتيب المعطوفين على النحو الآتي:

٢ - زكي نجيب محمود فيلسوف والمتنبي شاعر.

فإن ذلك لا يغير من المعنى شيئاً طالما أن واو العطف تدل على مجرد الاشتراك في الصدق ويتجلى ذلك في قائمة صدق القضية (٢):

ك	ق	ك . ق
ص	ص	ص
ص	ك	ك
ك	ص	ك
ك	ك	ك

ونعبر عنها في قاعدة صدق العطف في شجرة الصدق على النحو الآتي:



ولكن ستراوسون اعترض على معالجة علم الدلالة المنطقي لـ (واو العطف) بهذه الطريقة، التي ترى أن شروط صدق القضية العطفية واحدة مهما غيرنا المعطوفين، وانطلق من نزعته السياقية contextualism في المعنى التي قبلها مع غيره من فلاسفة أكسفورد، مؤكداً أن شروط صدق الصيغة (ق و ك) متغيرة من الناحية السياقية، فهي في سياق تعني الترتيب الزماني، وفي سياق آخر تعني العلاقة السببية.

ويمكن أن نوضح فكرة ستراوسون بالأمثلة الآتية:

(٣) تزوج محمد وفاطمة وأنجبا عدداً من الأطفال.

(٤) دخل أحمد الامتحان ونجح فيه.

هنا نجد أن واو العطف في مثل هذه القضايا تستلزم «الترتيب أو التعاقب الزماني»، فإنجاب الأطفال جاء بعد الزواج، والنجاح في الامتحان جاء بعد دخوله؛ ومن ثم فإن عكس الترتيب الزماني يجعل القضيتين السابقتين كاذبتين:

(٥) أنجب محمد وفاطمة عدداً من الأولاد وتزوجا.

(٦) نجح أحمد في الامتحان ودخله.

وبالإضافة إلى ذلك فإن واو العطف قد تعني في معناها الحرفي العلاقة السببية:

(٧) تجرع سقراط السم ومات.

فموت سقراط جاء نتيجة لتجرع السم، وليس من المعقول القول:

(٨) مات سقراط وتجرع السم.

وأنت تلحظ معي أن واو العطف تملك معنى ضعيفاً يدل على مجرد الاشتراك في الصدق، ومعنى قوياً يدل على التعاقب الزماني والعلاقة السببية. ويتطلب المعنى القوي تصوراً معيناً لمنطق الزمان يفتقر إليه منطق القضايا. ونخلص من ذلك إلى نتيجتين مهمتين: إحداهما أن القضايا العطفية غامضة، ويمكن تفسيرها بطرائق متنوعة؛ والأخرى هي أن شروط (ق و ك) ليست ثابتة وفقاً للقاعدة التي يضعها منطق القضايا، وإنما تعتمد شروط صدق العطف على السياق.

ولكن جرايس لم يذهب مذهب ستراوسون في نقد منطق القضايا، ولم يذهب مذهب أنصار منطق القضايا أيضاً، وإنما رأى أن الفلاسفة الذين يقولون بوجود اختلافات في المعنى بين الأدوات المنطقية الصورية (أو الروابط المنطقية) ونظائرها في اللغة الطبيعية ينقسمون إلى اتجاهين: الاتجاه الصوري formalist والاتجاه اللاصوري informalist. ولعل أبرز من يمثل الاتجاه الصوري فلاسفة الوضعية المنطقية، الذين أظهروا نقائص اللغة الطبيعية، وقالوا إنها لا تفي بحاجات العلم من

حيث الدقة والوضوح، ونادوا ببناء «لغة مثالية» ideal language أو كاملة منطقياً logically perfext. وطالما أن معاني الروابط المنطقية واضحة، يستطيع المناطقة تقرير القضايا بوضوح أيضاً، وتكون قيم صدقها محددة، ومتحررة من المضامين الميتافيزيقية، ويكون في مقدورهم صياغة أنساق من العبارات، وبيان كيفية انسجام بعضها مع بعض. والشيء الأساسي الذي كان يطمح إليه هؤلاء الفلاسفة هو بناء العلم على أسس متينة طالما أن عبارات العلم يمكن التعبير عنها عن طريق هذه اللغة المثالية.

على أن اللاصوريين لا يسلمون بالفروض التي يقيم عليها أصحاب الاتجاه الصوري مطالبتهم الفلسفية باللغة المثالية، وأبرز هذه الفروض:

١ – المعيار الأساسي الذي نحكم به على كفاية اللغة هو قدرتها على الوفاء بحاجات العلم.

٢ – لا يمكن ضمان التعبير بوصفه معقولاً اللهم إلا إذا قدمنا له توضيحاً أو تحليلاً لمعناه.

٣ – لا بد من أن يأخذ كل توضيح للتعبير صورة التعريف الدقيق الذي يكون تقريراً عن تكافؤ منطقي.

ويرد اللاصوريون على هذه الفروض بقولهم: إن اللغة تؤدي أغراضاً كثيرة، لا تقل في أهميتها عن أغراض البحث العلمي. ونستطيع أن نعرف معرفة تامة ما يعنيه التعبير، ونعرف بالأحرى، أنه معقول، من غير أن نعرف تحليله. زد على ذلك أنه على حين يكون من الحق بلا ريب أن الوسائل الصورية سهلة الانقياد إلى المعاملة النسقية من جانب المنطقي، فيبقى من الحق أيضاً أن هناك حججاً واستدلالات كثيرة يأتي التعبير عنها في اللغة الطبيعية وليس في حدود الأدوات الصورية، ومع ذلك تكون استدلالات صحيحة valid(٩٠).

لا مندوحة إذن عن أن نفسح المجال أمام منطق للّغة الطبيعية لا يكون نسقياً أو مبسطاً كما هو الحال في المنطق الصوري. وربما يستعين المنطق الأول بالمنطق

الثاني أو يسترشد به، ولكن يخطئ المرء إذا ظن أن المنطق الصوري يحل محل منطق اللغة الطبيعية. ولا يختلف المنطقان فحسب، وإنما يتعارضان أحياناً. فالقواعد التي تصح بالنسبة للأدوات الصورية ربما لا تصح بالنسبة لنظائرها الطبيعية[٩١].

والرأي عند جرايس أن الصوريين واللاصوريين مخطئون في افتراضهم المشترك الذي مؤداه أن الأدوات الصورية ونظائرها في اللغة الطبيعية تختلف في المعنى «وأن الخطأ ينشأ من انتباه غير كاف إلى طبيعة الشروط التي تحكم التخاطب وأهميتها»[٩٢]. والصواب إذن القول: إنه لا واو العطف ولا القضايا العطفية غامضة، وإن شروط صدق (ق و ك) ثابتة لا تتغير كلما تغير السياق، وإنما هي مستقلة عن السياق. ويقال مثل هذا عن بقية روابط اللغة الطبيعية. فالقضايا العطفية في اللغة الطبيعية تملك معنى محدداً هو معنى شرط الصدق الذي ينسبه إليها منطق القضايا، والجوانب الأخرى من معناها تفسر في حدود استعمال اللغة بوصفها مقتضيات. وبعبارة أخرى، فإن المعنى الأول للعطف هو مجرد الاشتراك في الصدق، أما المعنى التالي فلا يزيد على أن يكون اقتضاء تخاطبياً.

٧-٤- مبدأ التعاون وقواعد التخاطب:

تعتمد نظرية جرايس في الاقتضاء على النظر إلى استعمال اللغة بوصفه ضرباً من الفاعلية العقلية rational activity والتعاونية cooperative والتي تروم تحقيق هدف الاتصال بين الناس؛ ولكي ينجح هذا الاتصال، لا بد من أن تتوافر له درجة معينة من التعاون والتقارب في الأغراض بين المتخاطبين. ويتجلى ذلك في مبدأ عام أطلق عليه جرايس اسم «مبدأ التعاون» the cooperative principle، ويقول فيه: «اجعل إسهامك التخاطبي كما يتطلبه – عند المرحلة التي يحدث فيها – الغرض أو الاتجاه المقبول لتبادل الكلام الذي تشارك فيه»[٩٣].

ولقد وسع جرايس هذا المبدأ العام للسلوك التخاطبي في مجموعة من القواعد أطلق عليها اسم القواعد التخاطبية conversational maxims، وصنف هذه القواعد تحت أربع مقولات جرياً على طريقة كانت I.Kant (١٧٢٤-١٨٠٤) وهي: الكم quantity، والكيف quality، والإضافة relation، والجهة manner:

١ - **مقولة الكم**: ترتبط مقولة الكم بكمية المعلومات التي يجب تقديمها في التخاطب، وتتحقق بقاعدتين:

١ - اجعل إسهامك التخاطبي إخبارياً بالقدر المطلوب (بغية تحقيق الأغراض الحالية للتخاطب).

٢ - لا تجعل إسهامك التخاطبي إخبارياً أكثر مما هو مطلوب.

٢ - **مقولة الكيف**: وتحت هذه المقولة تأتي قاعدة عامة «حاول أن تجعل إسهامك التخاطبي صادقاً، وتتجلى في قاعدتين:

١ - لا تقل ما تعتقد أنه كاذب.

٢ - لا تقل ما تفتقر إلى دليل كاف عليه.

٣ - **مقولة الإضافة**: تحت هذه المقولة توجد قاعدة واحدة تقول:
- كن ملائماً.

٤ - **مقولة الجهة**: ينظر جرايس إلى هذه المقولة على أنها لا ترتبط بالمقول مثل المقولات السابقة، وإنما ترتبط بالأحرى بكيفية قول المقول. والقاعدة العامة التي تمثل هذه المقولة هي «كن واضحاً»، تندرج تحتها قواعد متنوعة مثل:

١ - اجتنب غموض obscurity التعبير.

٢ - اجتنب اللبس ambiguity.

٣ - كن موجزاً (اجتنب الإطالة بغير ضرورة).

٤ - كن مرتباً.

ويقبل الناس هذه القواعد ويسلمون بها تسليماً ضمنياً عند التخاطب، وهي في ذلك تشبه المبادئ العامة للتفكير مثل الهوية والتناقض والثالث المرفوع. فنحن نفترض أن المتكلم لا يقول أكثر ولا أقل مما هو مطلوب للحديث (الكم)، وأنه سيكون صادقاً ومخلصاً (الكيف)، وأن ما يقوله سيكون ملائماً لغرض الحديث (الإضافة)، وأنه سيكون واضحاً (الجهة).

ويجوز أن يلاحظ المتكلم جميع القواعد كما هو الحال في المثال الآتي:

الأب : أين الأولاد؟

الأم : إما أنهم يلعبون أسفل المبنى أو ذهبوا لشراء بعض الأشياء، ولست متأكدة أين هم على وجه الدقة.

هنا نلاحظ أن الأم قدمت القدر الصحيح المطلوب من المعلومات (الكم)، وأجابت بصدق أيضاً (الكيف)، وأدركت هدف زوجها من طرح السؤال، واتجهت بإجابتها نحوه، أي أن الإجابة هنا ملائمة (الإضافة)، وجاءت إجابتها واضحة (الجهة). وفي مثل هذه الحالة لا يوجد اقتضاء تخاطبي طالما أنه لا يوجد تمييز بين ما قالته وما تعنيه.

وأدرك جرايس أن هناك حالات كثيرة يخفق فيها الناس في مراعاة القواعد واحترامها، وقد ينشأ هذا الإخفاق عن تعمد الكذب وخداع الآخرين أو عدم القدرة على التعبير عن المقاصد من وراء الكلام تعبيراً واضحاً. وناقش جرايس مثل هذه الحالات، ولكنه صبَّ جلَّ جهده على الحالات التي يعجز فيها المتكلم عجزاً بيناً عن ملاحظة القواعد رغبة منه في حثِّ المستمع على أن يلحظ معنى إضافياً يختلف عن المعنى الذي تعبر عنه كلماته.

ويتحقق الاقتضاء التخاطبي بطريقتين: فأما الطريقة الأولى فهي الامتثال لقواعد التخاطب ومراعاتها، كما هو الحال في المثالين الأول والثاني (الحصول على البنزين، والذهاب إلى حديقة الحيوان)؛ وأما الطريقة الثانية فهي الخروج على قواعد التخاطب وكسرها، كما هو الحال في المثال الثالث. فأنت تجد في هذا المثال أن الأستاذ (ب) عندما قال: «الطالب (ع) جميل الخط ويحرص دائماً على المواعيد»، فإنه قد خرق القاعدة الأولى في مقولة الكم، ويجوز القول إنه قد خرق القاعدة المندرجة تحت مقولة الإضافة «كن ملائماً» وأن هذا الخرق جاء خرقاً علنياً ومقصوداً. وطالما أن (ع) هو أحد طلاب الأستاذ (ب) فإن الأستاذ (ب) كان في مقدوره أن يقدم المعلومات المطلوبة والملائمة بدلاً من الحديث عن جمال الخط أو الحرص على المواعيد. ولو كان (ب) يعتقد أن (ع) جيد في فلسفة اللغة، لوجب عليه أن يقول ذلك،

ولكنه كان يعتقد أن (ع) ليس جيداً، ولم يكن مستعداً لأن يصرح بذلك؛ وانتهى المستمع إلى أن المتكلم يريد أن يبلغ شيئاً آخر. وأخص ما يمتاز به هذا المثال هو أن يكشف عن الصلة بين الاقتضاء والمعنى لدى المتكلم، ذلك أن ما اقتضاه المتكلم تؤيده مقاصده الاتصالية.

وربما نحس أن حديث جرايس عن قواعد التخاطب – التي قد يختلف حولها علماء اللغة – هو أشبه بشيء بعلم اللغة وأقرب إليه من شبهه بالفلسفة وقربه إليها. ولكن الحقّ أن هذه القواعد لم تكن غاية تطلب لذاتها، وإنما كانت وسيلة يبتغيها الفيلسوف ليصل إلى أغراضه، وفي طليعتها أن الخلاف بين الصوريين واللاصوريين حول معاني الروابط المنطقية ونظائرها في اللغة الطبيعية يرجع إلى افتقار الفريقين إلى العناية الكافية بقواعد التخاطب.

فالدلالة الأولى لواو العطف هي الاشتراك في الصدق، وكل دلالة تالية هي مجرد اقتضاء. والقاعدة العامة لمقولة الجهة هي «كن واضحاً»، وهذه القاعدة تستلزم ترتيب عناصر الجملة أو الكلام ما استطاع المتكلم إلى ذلك سبيلاً. ويتجلى ذلك في القاعدة الرابعة «كن مرتباً» التي تقوم بدور مهم في فهم معنى الجملة العطفية مثل «تزوج محمد وفاطمة وأنجبا عدداً من الأطفال»؛ وقائل هذه الجملة يريد أن ينقل معلومات عن حدوث شيئين هما الزواج والإنجاب؛ أو قل إن الجملة تنقل الاقتراح بأن الأطفال يأتون بعد الزواج. ولكن هذا الاقتراح ليس شيئاً آخر سوى اقتضاء تخاطبي. وإذا كان المتكلم مدركاً للترتيب الذي تجري به الأحداث، ثم قال: «أنجب محمد وفاطمة عدداً من الأطفال وتزوجا»، فإنه لا يكون متعاوناً uncooperative، لأنه خرج على قاعدة «كن مرتباً»، وتكون جملته مضللة.

ومما يزيد من قوة حجة القول بالاقتضاء على القول بغموض معاني العطف جمل من قبيل «أحس محمد بالمرض وزار الطبيب، ولكن ليس بالضرورة بهذا الترتيب» فهذه الجملة لا تملك قراءة متناقضة. وفي هذه الحالة يؤكد المتكلم بوضوح أنه لا يعرف بدقة ترتيب الأحداث لكي يتفادى تضليل المستمع.

وإذا تبين أن الاقتضاء كاذب، فإن المتكلم يكون قد ضلل المستمع، ولكن المتكلم لا يكون كاذباً في كلامه. ومن ثم يجب علينا التمييز بين ما هو كاذب what is false وما هو مضلل فقط What is only misleading. فإذا كان أحمد يعرف أنه لا يوجد بنزين في المحطة، ومع ذلك قال «هناك محطة بنزين عند ناصية الشارع»، فإنه قد ضلل محمداً (في المثال الأول)، ولكن أحمد لم يكذب لأنه لم (يقل) بالفعل إن هناك بنزيناً في المحطة. ولا يكون أحمد كاذباً في قوله إلا إذا (اعتقد) بأنه لا توجد محطة بنزين عند ناصية الشارع.

وهنا تتضح فكرة جرايس القائلة إن واو العطف تملك معنى الاشتراك في الصدق، وأن معانيها الأخرى، مثل الترتيب الزماني والعلاقة السببية، يجب فهمها على أنها مقتضيات أخرى من كونها معاني. ويستخدم جرايس لتسويغ فكرته هذه مبدأ منهجياً يجوز أن نسميه بمبدأ الاقتصاد الدلالي semantic parsimony والذي جاء تعديلاً لمبدأ الاقتصاد الأنطولوجي ontological parsimony عند وليم أوكام William Ockham (١٢٨٥–١٣٤٧) والمعروف باسم نصل أوكام Ockham's razor الذي يقول: لا يجب مضاعفة الكائنات من غير ضرورة.

Entia non sunt multiplicanda praeter necessitatem

Entities are not to be mulitplied beyond necessity

واقترح جرايس صورة معدلة من نصل أوكام أطلق عليها اسم «نصل أوكام المعدل» modified Ockham's razor وهاك نصه: «لا يجب مضاعفة المعاني من غير ضرورة»(٩٤).

Senses are not to be multiplied beyond necessity.

ربّ معترض يعترض على نصل أوكام المعدل أو «نصل جرايس» Grice's razor، على حد تعبير «ديفيس»، بقوله: صحيح أنه لا يجب مضاعفة المعاني من غير ضرورة، ولكن من الصحيح أيضاً أنه لا يجب مضاعفة المقتضيات من غير ضرورة. والصيغة البسيطة لنصل جرايس لا تؤيد المقتضيات على حساب المعاني، والسبب في ذلك أنهما يدخلان معاً في باب «الكائنات الإضافية» extra entities. ولكن جرايس

وأنصاره يستطيعون الردّ على هذا الاعتراض بأنه من الاقتصاد التسليم بالمقتضيات أحرى من المعاني، لأن المقتضيات يمكن تفسيرها في حدود مبادئ سيكولوجية عامة للتخاطب، على حين أن المعاني تتطلب اصطلاحات لغوية محددة. والتسليم بالمعاني بدلاً من المقتضيات يؤدي إلى نظرية شاملة معقدة إلى حدّ بعيد. إذ بالإضافة إلى القواعد العامة للسلوك العقلي التعاوني الذي يمثله مبدأ التعاون، فإن المعاني تستلزم مواضعات محددة تحكم استعمال كلمات معينة[٩٥].

وعلى الرغم من الانتقادات التي وجهت إلى نظرية جرايس في الاقتضاء[٩٦]، فإنها تحظى برواج بين علماء الدلالة؛ وسرّ ذلك أنها تمكن الباحث النظري، عندما تتوافر شروط معينة، من نقل عبء التفسير من علم الدلالة إلى علم الاستعمال. ومن هذه الوجهة من النظر، فإن الفكرة المهمة إلى حدّ بعيد هي فكرة عن المقتضيات التخاطبية «العامة» generalized. وعندما يكون الاقتضاء التخاطبي عاماً، أعني عندما يتولد عن طريق الإهمال، فإنه يميل إلى أن يصبح غير قابل للتمييز من المحتوى الدلالي. ونظرية جرايس علمت عالم الدلالة ألا يأخذ أمثال هذه الحدوس الدلالية بالقيمة الظاهرية. وحتى لو ظهر شيء بحيث يكون جزءاً من المحتوى الدلالي للمنطوق فإن إمكانية تفسيره تفسيراً استعمالياً pragmatically يجب أن تؤخذ دائماً بعين الاعتبار[٩٧].

وإن شئت أن تضع ذلك بعبارة أخرى قل إن إحدى مزايا نظرية الاقتضاء أنها تساعدنا في أن نضع جوانب حدسية كثيرة من المعنى في «سلة المهملات الاستعمالية» pragmatic wastebasket بوصفها مقتضيات، بدلاً من أن تعامل بوصفها معطيات حقيقية لعلم الدلالة. وهكذا نجد أن أحد الدروس الدلالية التي تعلمنا إياها نظرية الاقتضاء هو التمييز المهم بين المضامين الدلالية بصورة حقيقية للعبارة والمضامين الاستعمالية فحسب.

ومهما تكن الدلالة السلبية لاستعارة «سلة المهملات» – إذ عادة ما تستخدم لجمع الأشياء التي لا نرغب فيها – فإن هذه الطريقة في الكلام عن الأمور

الاستعمالية اكتسبت وضعاً معيناً بين علماء الاستعمال، وبخاصة في السنوات المبكرة من نشأة علم الاستعمال؛ وتعود الفكرة إلى Yehoshua Bar-Hillel (توفي سنة ١٩٧٨) الذي وصف علم الدلالة بأنه سلة مهملات[٩٨]. والإدراك الصحيح لمغزى هذه الاستعارة يتطلب النظر إليها في سياق طموح علم اللغة إلى أن يكون علماً دقيقاً في أواخر الخمسينات وبداية الستينات من القرن العشرين. وكان التوكيد في هذه الفترة على الاستدلال الصوري والاستخدام الرمزي المجرد. وجرى النظر إلى علم اللغة على أنه جبر اللغة[٩٩]. وهذه الفكرة بدت واضحة أيضاً في استبعاد تشومسكي للجوانب الدلالية من النظرية اللغوية عندما قدم محاولاته الأولى في بناء نظرية النحو التوليدي التحويلي.

الخاتمة

أكد رواد علم الاستعمال مثل أوستن ومالينوفسكي على الجانب الاجتماعي من اللغة في مقابل الجانب المعرفي؛ ثم جاء جرايس ليؤكد على الجانب النفسي من استعمال اللغة من خلال نظريته القصدية في المعنى. وإذا نظرت إلى نظرية أفعال الكلام التي تقع في قلب علم الاستعمال، ستجد أن أوستن، مبتكر هذه النظرية، يقرر أن أداء الأفعال الكلامية تحكمه القواعد والاصطلاحات، ولم ينظر بعين الاعتبار إلى مقاصد المتكلمين من وراء الكلام. ولكن جرايس اعتبر هذا نقصاً يشوب النظرية، فأتمه بوجهة نظره القصدية التي حظيت بتعديل وتطوير، وتمثل الآن الاتجاه السائد في دراسة أفعال الكلام. وتجلى هذا التطوير في كتابات ستراوسون وسيرل وهابرماس Jurgen Habermas (١٩٢٩-) وفاندرفكن Daniel Vanderveken ومن جرى مجراهم. وقد عرضت عليك طرفاً من إسهامات ستراوسون، وجانباً جوهرياً من التعديلات التي اقترحها سيرل. أما هابرماس فقد طرح في كتاب «نظرية الفعل الاتصالي» في مجلدين عام ١٩٨١، وفي غيره من مؤلفاته التي صدرت بعد سنة ١٩٧٠ نظرية في الفعل الاتصالي communicative action استمد أصولها من نظرية أفعال الكلام، ونظرية الاقتضاء التخاطبي عند جرايس، وعلم اللغة الاجتماعي. وسعى فاندرفكن – في مقال «أفعال الكلام غير الحرفية والقواعد التخاطبية» – إلى تطوير علم الاستعمال النظري عن طريق صياغة مبادئ نظرية منطقية عامة للمعنى لدى المتكلم تساعده على وضع المنطوقات غير الحرفية وفهمها.

وها هو سيرل يقرّ بأن ضم التقرير القصدي عن المعنى إلى جانب المبادئ العقلية للتعاون التخاطبي يؤتي ثماراً وفيرة ونتائج جيدة في تحليل مشكلات أفعال الكلام مثل «أفعال الكلام غير المباشرة» indirect speech acts والاستعمالات المجازية من قبيل الاستعارات metaphors. وفي الفعل الكلامي غير المباشر يعني المتكلم شيئاً أكثر مما يقوله بالفعل. خذ مثلاً بسيطاً يوضح ذلك، عندما يقول المتكلم

أثناء تناول الغداء: «هل تستطيع أن تناولني الملح؟»، لا يمثل قوله سؤالاً عن مدى قدرة المستمع على تقديم الملح، وإنما يمثل طلباً من المستمع أن يناوله الملح. والسؤال الملغز هو: كيف يتواصل المتكلمون والمستمعون بطريقة هينة هكذا عندما توجد هوة واسعة بين ما يعنيه المتكلم وما يقوله بالفعل؟ وفي حالة الاستعارة يظهر سؤال مماثل: كيف يوصل المتكلم ما لديه من معنى مجازي توصيلاً سهلاً عندما لا يرمز المعنى الحرفي للجملة المنطوقة إلى هذا المعنى المجازي؟ لقد حدث تقدم كبير في التعامل مع هذه المشكلات وغيرها، ويرجع الفضل في ذلك إلى الأدوات التي أسهم بها جرايس في نظرية أفعال الكلام[١٠٠].

أسلفنا الإشارة إلى بعض الانتقادات التي وجهت إلى النظرية القصدية والتي كانت ترمي في جانبها الأكبر إلى تنقيحها وتعديلها، ولكن هناك انتقادات أخرى من قبيل:

١ - تخفق هذه النظرية في تفسير المعنى بالنسبة لاستعمالات معينة للرموز في العمليات الحسابية. وهذا الرأي ذهب إليه جلبرت هارمان Gilbert Harman (١٩٣٨-   ) في كتابه «الاستدلال والمعنى والعقل» عام ١٩٩٩؛ حيث نراه يقول: «يقترح جرايس تحليل معنى التعبير في حدود المعنى لدى المتكلم. ويقترح اقتراحاً يثير الخلاف إلى حد بعيد، تحليل المعنى لدى المتكلم في حدود مقاصد المتكلم لتوصيل شيء ما. واقتراحه الثاني يهمل استعمالاً ذا معنى للرموز في الحساب. فربما تبتكر مجموعة رموز خاصة لكي تحل مسألة معينة. وسيكون من الملائم تماماً القول إنك تعني برمز معين كذا وكذا، حتى لو لم يكن لديك القصد لاستعمال هذه الرموز في أي نوع من الاتصال»[١٠١].

٢ - لعل الاعتراض الذي يتردد كثيراً عند مناقشة هذه النظرية هو أنها محاولة ليست ناجحة تمام النجاح، وسر ذلك أنها ترد مشكلة المعنى إلى فلسفة العقل عن طريق ربط الجمل بمضامين المقاصد والاعتقادات الفعلية لدى المتكلمين والمستمعين[١٠٢]. وتحليل المعنى في حدود المقاصد والاعتقادات يثير مشكلة أخرى، بالإضافة إلى شرعية الرد reduction ذاته، وهي أننا لا نستطيع أن نتوقف حتى يتم تفسير المقاصد والاعتقادات أيضاً.

والحق الصريح أن جرايس لم يناقش بوضوح طبيعة نظريته في المعنى، وإنما جاء الكشف عن ماهية هذه النظرية من الذين عملوا على تطويرها مثل «شيفر» في كتاباته المبكرة و«لور» ومن سار في ركابهما. يقول شيفر: «إن قابلية تعريف المعنى في حدود التفكير – من غير قابلية رد المعنى إلى التفكير – هو بالكاد اهتمام عابر، وواقعة غريبة ليست في حاجة إلى تفسير، ولا تمثل بالتأكيد تقريراً عما عساه أن يكون المعنى»(١٠٣). وفي هذا الاتجاه للتفسير الردي reductive interpretation يسير «لور» مؤكداً أن إدراك جوهر المفاهيم الدلالية، وفهم طبيعتها الأساسية، لا يتحقق إلا عن طريق ردّها إلى المفاهيم السيكولوجية. ويقول في عبارة صريحة: «إن ما أود أن أثبته هو أن نظرية المعنى جزء من نظرية العقل، وليست الطريق الآخر حولها»(١٠٤).

ويمكن معالجة مشكلة النزعة الردية في عمل جرايس في إطار أسبقية العقل على اللغة شريطة أن نفهم هذه الأسبقية على أنها تحليلية فقط وليست أنطولوجية أو ابستمولوجية. فالأسبقية التحليلية هي أسبقية في ترتيب التحليل أو التوضيح، ومن ثم فإن تحليل المفاهيم الدلالية وتوضيحها في حدود المفاهيم السيكولوجية لايعدّ استبعاداً لها، وإنما يعدّ تسويغاً لاستعمالها. ولكن الأسبقية الأنطولوجية تقرر التزام وجود العقل دون التزام وجود المعنى، والأسبقية الابستمولوجية تعني إمكانية معرفة الحقائق المتعلقة بمقاصد المتكلمين دون حاجة إلى معرفة الحقائق المتعلقة بمعنى الجملة.

وينظر أنصار العلم المعرفي cognitive science الآن إلى محاولة جرايس على أنها جزء من مشروعهم الأكبر لتقديم تقرير فيزيائي أو بيولوجي عن العقل والمعنى سواء بسواء(١٠٥). إن تكوين رؤية علمية لأنفسنا وللعالم الذي نعيش فيه يستلزم إدراك الجوانب الني ننفرد بها دون سائر الكائنات. والشيء المحقق أن اللغة خصيصة إنسانية فريدة تميز النوع البشري من سائر الأنواع. وعلى الرغم من أننا نستخدمها استخداماً عادياً ويسيراً ومألوفاً، فإنها تقف عقبة أمام اكتمال هذه الرؤية العلمية. ويعي أصحاب العلم المعرفي إلى إدخال اللغة في هذه الرؤية عن طريق الإفادة

من النظرية القصدية في المعنى عند جرايس. تبدأ أولى خطوات السير بالنظر إلى اللغة على أنها الوسيلة الجوهرية للمعنى؛ صحيح أن هناك علامات سميوطيقية (رمزية) أخرى يستعين بها الإنسان أحياناً، مثل العلامات التي نلحظها على جانبي الطريق، ولكن تظل اللغة البشرية هي وسيلة المعنى الأولى بلا منازع. ويتجلى إسهام جرايس في أنه استطاع توضيح مفهوم المعنى في حدود سيكولوجية عامة مثل القصد والاعتقاد، وهذه هي الخطوة التالية. وأخيراً تبين الخطوة الثالثة أن مفاهيمنا النفسية يمكن تفسيرها في حدود بيولوجية. ونحن نفهم ردّ الدلالي إلى السيكولوجي الذي تقوم به نظرية جرايس على أنه ردّ بالمعنى الضعيف وليس رداً بالمعنى القوي. والرد بالمعنى الضعيف يعني أمرين: الأول أن أسبقية العقل على اللغة هي أسبقية تحليلية وليست ابستمولوجية أو أنطولوجية بالمعنى الذي أسلفنا الإشارة إليه؛ والثاني أن الردّ الذي تقوم به النظرية القصدية لا يحيل كلّ قضايا المعنى إلى فلسفة العقل طالما أننا انتهينا إلى أن نظرية جرايس تتلخص في القول إن المعنى هو «القصد» بالإضافة إلى «الاصطلاح».

الهوامش

١ - في مثال فريجة (أ) هي نجم الصباح، و(ب) هي نجم المساء، و(ج) هي كوكب الزهرة venus ويقول فريجة: «إن إشارة «نجم السماء» ستكون هي نفس إشارة «نجم الصباح» ولكن المعنى لا يكون هو نفسه».

Gottlob Frege, *Translations From the Philosophical Writings of Gottlob Frege,* edited by P. Geach and M. Black, 3rd ed., Oxford: Basil Blackwell, 1980, p. 57.

2 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* Cambridge, Massachussets: Harvard University Press, fourth printing 1995 (first ed. 1989), p. 349.

3 - Isaiah Berlin, *The Proper Study of Mankind, An Anthology of Essays,* edited by Henry Hardy and Roger Hausheer, New York: Farrar, Straus and Giroux, 1998, p. 437.

ويضع برلين في فئة القنافذ أفلاطون، وبسكال، وهيجل، ودستوفسكي، ونيتشه، وأبسن؛ على حين يضع في فئة الثعالب أرسطو، وارازاموس، وموليير، وجوته، وبوشكين، وبلزاك.

4 - Michael Dummett, "Dummett's Replies" in B. McGuinness and G. Oliveri (eds.) *The Philosophy of Michael Dummett,* Dordrecht: Kluwer Academic Publishers, 1994, p. 318.

5 - Richard Warner, "Introduction: Grice on Reasons and Rationality" in Paul Grice, *Aspects of Reason,* edited by Richard Warner, Oxford University Press, 2001, p. viii.

6 - Judith Baker, "Grice, Herbert Paul" in Edward Craig, (General editor), Routledge Encyclopedia of philosophy, London and New York, Routledge, Vol. 4, first published 1998, p. 173; and see also Kent Bach, "Grice, H. Paul" in *The MIT Encyclopedia of the Cognitive sciences,* edited by Robert A. Wilson and Frank C. Keil. A Bradford Book, Cambridge, Massachusetts & London, England: the MIT Press, 1999, pp. 359-360.

7 - P.F. Strawson, "Intellectual Autobiography" in Lewis Edwin Hahn, (ed.), *The Philosophy of Strawson,* (The Library of Living

Philosophers, Vol. XXVI) Chicago and Lasalle, Illinois: Open Court, first printing 1998, p. 5.

– ويقول روبرت فوجلين: «إن بول جرايس فيلسوف لا يقبل النظرة السطحية».

Robert J. Fogelin "Review of *Studies in the Way of Words*" The Journal of Philosophy, 1991, p. 291.

8 - Stephen Neale, "Paul Grice and the Philosophy of Language" *Linguistics and Philosophy*, 15, 1992, p. 509; and see also P.V. Lamarque, "Grice, H.P." in *Concise Encyclopedia of Philosophy of Language,* edited by Peter V. Lamarque and R. E. Asher, Pergamon, 1997, p. 517.

9 - Stephen Neale, "Paul Grice and the Philosophy of Language" p. 509.

10 - Paul Grice, "Reply to Richards" in R.E. Grandy and R. Warner (eds.), *Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends,* Oxford: Clarendon Press, 1986, p. 51.

– واشترك جرايس مع ستراوسون في الدفاع عن نظرية المعنى من النوع القصدي في مقالهما «في الدفاع عن العقيدة»

- H.P. Grice and P.F. Strawson "In Defense of a Dogma" *Philosophical review,* Vol. LXV, 1956, p. 146.

11 - Paul Grice, *Studies in The Way of Words,* p. 172.

12 - Ibid, p. 172.

13 - Ibid, p. 173.

14 - Stephen Neale, "Paul Grice and the Philosophy of Language" pp.; 514-515; and see also P. Suppes, "The Primacy of Utterer's Meaning "in R. Grandy and R. Warner (eds.), *Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends,* Oxford: Clarendon Press, pp. 109-129.

15 - Paul Grice, Studies in The Way of Words, p. 340; and see also P.Yu "On the Gricean Program About Meaning" *Linguistics and Philosophy,* 3, pp. 273-288.

16 - C.I. Stevenson, *Ethics and Language,* New Haven: Yale University Press, 1944, p. 43.

17 - Ibid, p. 57.

وانظر في تفصيل ذلك:

- O. Hanfling, "Theories of Meaning From Reference to Use" in G.H.R. Parkinson (General editor), *An Encyclopedia of Philosophy,* Routledge, 1989, pp. 38-39.

18 - P.F. Strawson, *Logico - Linguistic Papers,* London: Methuen & Co Ltd, 1971, p. 171.

19 - Ibid, p. 172.

20 - Anita Avarmides, *Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language,* Cambridge, massachusetts: the MIT Press, 1989, p. 4.

٢١ – انظر د. صلاح إسماعيل، فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥، ص٨٢–٨٣.

22 - David Wiggins, "On Sentence - Sense, Word - Sense, and Difference of Word - Sense" in L.A. Jacobvits and D.D. Steinberg (eds.), *Semantics: An Interdisciplinary Reader in Philosophy, linguistics and Psychology,* Cambridge: Cambridge University Press, 1971, p. 20.

23 - Brian Loar, "Two Theories of Meaning" in Gareth Evans and John McDowell (eds.), *Truth and Meaning: Essays in Semantics,* Oxford: Clarendon Press, 1977, p. 150.

24 - John R. Searle, "Introduction" to *The Philosophy of Language,* London: Oxford University Press, 1971, pp. 6-7.

25 - Anita Avramides, "Intention and Convention" in Bob Hale, and Crispin Wright (eds,), *A Companion to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers, 1999, p. 62.

26 - P.F. Strawson, *Logico - Linguistic Papers,* p. 176.

27 - Donald Davidson, *Inquiries into Truth and Interpretation,* Oxford: Clarendon Press, 1984, p. 24.

ألمح ديفيدسون إلى دور القصد والاعتقاد في توصيل المعنى في كتاباته المبكرة: «إن الشخص الذي ينطق الجملة» "the candle is out" (الشمعة منطفئة) بوصفها جملة في اللغة الإنجليزية، لا بدّ من أن يقصد نطق كلمات تكون صادقة فقط إذا كانت الشمعة المشار إليها منطفئة في وقت النطق؛ ولا بدّ من أن يعتقد أنه بإحداث الأصوات التي يحدثها فإنه ينطق كلمات لا تكون صادقة إلا بمقتضى هذه الشروط. وهذه المقاصد والاعتقادات ليست جديرة بأن يمعن المتكلم الفصيح النظر فيها. ولكن على الرغم من أنها لا تحظى عادة بالاهتمام، فإن غيابها سوف يكفي لإثبات أنه ليس متكلماً باللغة الإنجليزية. وغياب أية أفكار مناظرة سوف يثبت أنه ليس متكلماً على الإطلاق».

- Donald Davidson, *Inquiries into Truth and Interpretation,*

ولكن ديفيدسون عاد في كتاب متأخر «الذاتي وبين الذاتي والموضوعي»، عام ٢٠٠١ ليساير جرايس في نظريته القصدية مؤكداً على «الأهمية الأساسية للقصد في الاتصال».

Donald Davidson, *Subjective, Intersubjective, Objective, Oxford:* Clarendon Press, 2001, p. 112.

28 - P.F. Strawson, *Logico - Linguistic Papers,* p. 180.

29 - Ibid, p. 181.

30 - P.F. Strawson, *Entity and Identity and Other Essays,* Oxford: Clarendon Press, 2000, p. 231.

31 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* p. 213.

32 - Ibid, p. 213.

33 - Ibid, p. 214.

34 - C.S. Peirce, *Collected Papers of Charles Sanders Peirce,* Vol. 4, edited by Charles Hartshorne and Paul Weiss, Cambridge University Press, paragraph 447.

35 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* p. 215.

36 - Ibid, p. 293.

37 - Anita Avramides, *Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language,* p. 42.

38 - Paul Grice, *Studies in the way of Words,* p. 217.

39 - Ibid, p. 217.

40 - Ibid, p. 220.

لقد اقترح بعض الفلاسفة مثل ادموند هوسرل Edmund Husserl (١٨٥٩-١٩٣٨) في كتابه «البحوث المنطقية»، الجزء الأول عام ١٩٠٠، تصوراً عاماً موجزاً غاية الإيجاز لكيفية حدوث التواصل بين المتكلم والمستمع فحواه أن التعبيرات توضع في الأصل لأداء وظيفة الاتصال. إذ ينطق المتكلم بالكلمة قاصداً التعبير عن نفسه من خلال ما تعنيه، ولا بدّ من أن يهبها المعنى في أفعال عقلية معينة، ويرغب في أن يشترك المستمع إليه في هذا المعنى. ويصبح هذا الاشتراك ممكناً إذا فهم المستمع قصد المتكلم، ويدرك المستمع هذا القصد بقدر ما ينظر إلى المتكلم بوصفه شخصاً لا ينطق أصواتاً فحسب وإنما «يخاطبه».

Edmund Husserl, *Logical Investigations,* translated by J.N. Findlay, London: Routledge & Kegan Paul, 1970, Vol. 1, sec. 7. And compare: Peter Simons, "Meaning and Language" in Barry Smith and David W. Smith (eds.). *The Cambridge Companion to Husserl,* Cambridge University Press, 1996, pp. 108-109.

41 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* p. 93.

42 - Stephen R. Schiffer, *Meaning,* Oxford: Clarendon Press, 1972, pp. 12-13.

43 - P.F. Strawson, *Logico - Linguistic Papers,* p. 156.

44 - Ibid, p. 157.

45 - Stephen R. Schiffer, *Meaning,* pp. 18-19, and Alfred F. Mackay, "Professor Grice's Theory of Meaning", *Mind,* Vol. LXXXI, No. 321, January 1972, pp. 57-66.

46 - John R. Searle, "What is a Speech - act?" In Max Black (ed.), *Philosophy in America, Ithaca,* NY: Cornell University Press & London: George Allen and Unwin, 1965, pp. 229-230.

47 - Ibid, p. 230.

وانظر في نقد محاولة سيرل:

Jonathan Bennett," The Meaning - Nominalist Strategy", *Foundations of language,* 10, 1973, p. 164.

48 - John R. Searle, *Speech Acts*, Cambridge University Press, 1970, p. 45.

وأوضح سيرل في غير موضع من كتاباته الحالية أنه لا يوجد تعارض بين طريقة جرايس في تناول المعنى وطريقته هو، فيقول في كتابه «الوعي واللغة» عام ٢٠٠٢: منذ أن ظهر العمل المبكر في أفعال الكلام من جانب أوستن وجرايس وعملي بالإضافة إلى آخرين، بدت إمكانية التمييز في نظرية أفعال الكلام بين جديلتين متنافرتين في ظاهر الأمر. الجديلة الأولى ترتبط ارتباطاً جلياً باسم جرايس وتعالج القصدية الفردية individual intentionality بوصفها الفكرة الأساسية في نظرية أفعال الكلام. والأفعال الفردية تحدث المعنى ويحاول المتكلمون عن طريق هذه الأفعال إحداث تأثيرات في المستمعين عن طريق حمل المستمعين على إدراك محاولتهم لإحداث هذه التأثيرات. ومن ثم يكون المعنى حصيلة الأفعال الفردية للمعنى. وأنت لا تجد في تحليل جرايس اقتراحاً يقول إن المواضعات أو القواعد أو الممارسات الاجتماعية تكون أساسية بأية طريقة كانت بالنسبة لأداء الأفعال الكلامية. والجديلة اثانية المرتبطة بعمل أوستن «كيف نصنع الأشياء بالكلمات» عام ١٩٦٢ وكتابي المبكر «أفعال الكلام» عام ١٩٦٩، تؤكد على دور المؤسسات الاجتماعية في أداء الأفعال الكلامية، وهذا يعني أن المواصفات الاجتماعية والقواعد وسياقات المنطوق تؤدي دوراً أساسياً في تحديد الفعل الكلامي. وفي هذه الوجهة من النظر، ليس المعنى حصيلة للقصدية الفردية فحسب، وإنما نتيجة للممارسات الاجتماعية أيضاً. ويؤكد سيرل على أن هاتين الجديلتين أو الطريقتين لا تتعارضان عند تفسير المعنى وأفعال الكلام، ذلك أن قدراتي على أفعال الكلام تتحقق تماماً في عقلي، وإنجازاتي الفعلية لأفعال

الكلام هي تعبيرات عن القصدية لديّ. وكما أن التعبيرات عن القصدية لديّ تتجه عادة إلى أعضاء آخرين في المجتمع، فكذلك تشير القدرات ذاتها إلى أعضاء آخرين في المجتمع لأن القدرات ممارسات اجتماعية.

John R. Searle, *Consciousness and Language,* Cambridge University Press, first published 2002, p. 142. and p. 155.

49 - John R. Searle, *Mind, Language and Society: Philosophy in the Real World,* New York: Basic Books, 1999, (first ed. 1998), p. 140.

50 - John R. Searle, *Speech Acts,* p. 46.

51 - Ibid, P. 47. And see also John R. Searle, "Meaning, Communication, and Representation" in R.E. Grandy and R. Warner (eds.) *Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends,* pp. 209-226.

52 - Kenneth Taylor, *Truth and Meaning: An Introduction to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers, first published 1998, pp. 317-319.

53 - J.L. Austin, *How To Do Things With Words,* Oxford University Press, 1970, p. 116.

وانظر في مناقشة هذه الفكرة د. صلاح إسماعيل، التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٩٣، ص١٩٧-١٩٨.

54 - John R. Searle, "Contemporary Philosophy in the United States" in Nicholas Bunnin, and E.P. Tsui - James (eds.), *The Blackwell Companion to Philosophy,* Oxford: Blackwell, 1996, p. 18.

55 - John R. Searle, *Speech Acts,* pp. 49-50.

56 - Stephen R. Schiffer, *Meaning,* p. 30 ff.

57 - Ibid, p. 32.

58 - Ibid, p. 31.

وانظر في تفصيل المعرفة المتبادلة:

N. Smith (ed.), *Mutual Knowledge,* New York: Academic Press 1992.

59 - Stephen R. Schiffer, *Remnants of Meaning,* Cambridge, Massachusetts: MIT, 1989, pp. 245-246.

60 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* p. 113.

61 - Anita Avramides, "Intention and Convention" in Bob Hale and Crispin Wright (eds.) *A Companion to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers, 1999, pp. 77-78.

62 - Mark de Bretton Platts, *Ways of Meaning: An Introduction to a Philosophy of Language,* London, Boston and Henley: Routledge & Kegan Paul, 1979, p. 91.

63 - Alexander Miller, *Philosophy of Language,* Montreal & Kingston, London: McGill - Queen's University Press, 1998, p. 234.

64 - Martin Davis, "Philosophy of Language" in Nicholas Bunnin and E.P. Tsui - James (eds.), *The Blackwell Companion to Philosophy,* Oxford: Blackwell, first published 1996, p. 97.

65 - Ibid, p. 97.

66 - Mark de Bretton Platts, *Ways of Meaning,* p. 89.

67 - Ibid, p. 89.

68 - Ibid, p. 90.

69 - Noam Chomsky, *Rules and Representations,* New York: Columbia University Press, 1980, p. 83.

70 - Alexander Miller, *Philosophy of Language,* p. 236. And see also harold W. Noonan, *Frege: A Critical Introduction,* UK: Polity, first published 2001, p. 174.

71 - Simon Blackburn, "Communication and Intention" in Edward Craig (General editor), *Routledge Encyclopedia of Philosophy,* Vol. 2, London and New York: Routledge, 1998, p. 458.

72 - Anita Avramides, "Intention and Convention" in Bob Hale and Crispin Wright (eds.), *A Companion to the Philosophy of Language,* pp. 79-80.

73 - David Lewis, *Convention: A Philosophical Study,* Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, 1969, p. 1.

٧٤ – أفلاطون، محاورة كراتيليوس، ترجمة وتقديم د. عزمي طه السيد، عمان، الأردن: وزارة الثقافة، الطبعة الأولى، ١٩٩٥، ٣٨٩ب، هـ، ص١٠١، ١٠٣.

75 - Quoted in Anita Avramides, "Intention and Convention" in Bob Hale and Crispin Wright (eds.), *A Companion to the Philosophy of Language,* p. 60.

٧٦ – أبو الفتح عثمان بن جني، الخصائص، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦، الجزء الأول، ص٤١–٤٢.

77 - David Lewis, *Philosophical papers,* Vol. 1, Oxford: Oxford University Press, 1983, pp. 164-165.

78 - John R. Searle, *Mind, Language and Society,* p. 140.

٧٩ – انظر د. عادل فاخوري «الاقتضاء في التداول اللساني» عالم الفكر، الكويت، ١٩٨٩، ص١٤١، حيث يستخدم مصطلح «علم التداول»، ومع ذلك فقد أحسن الدكتور فاخوري صنعاً عندما اختار لمصطلح implicature مقابلاً عربياً دقيقاً هو «الاقتضاء».

80 - Charles Morris, "Foundation of the Theory of Signs" in *Writings on the General Theory of Signs,* The Hague: Mouton, 1971, pp. 35, 43.

81 - Rudolf Carnap, *Introduction to Semantics,* Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 1942, p. p.

82 - Francois Recanati, "Pragmatics" in Edward Craig, (General editor) *Routledge Encyclopedia of Philosophy,* Vol. 7, p. 620.

83 - William G. Lycan, "Philosophy of Language" in Robert Audi, (General editor), *The Cambridge Dictionary of Philosophy,* Cambridge University Press, 1995, pp. 588-589.

٨٤ – لا يميز بعض الباحثين بين اللزوم implication والاقتضاء implicature فيسمي G.Leech and J.Tjomas الاقتضاء «اللزوم الاستعمالي» pragmatic implication.

Geofrrey N. Leech and Jennifer Thomas, *Pragmatics: The State of the Art,* Lancaster University, 1988, p. 19.

85 - Paul Grice, Studies in the Way of Words, p. 25.

86 - L.T.F. Gamut, Logic, Language, and Meaning, Vol. 1, *Introduction to Logic,* Chicago and London: The University of Chicago Press, 1991, p. 198.

٨٧ – ربما نستعمل كلمة «عزب» مثلاً، لتعني أشياء كثيرة منها أنه حرّ من القيود الأسرية، أو أنه يتناول طعامه خارج منزله في غالب الأمر، ولكن معناها المتفق عليه هو «ذكر غير متزوج».

وانظر في بيان الاقتضاء التخاطبي:

L. Karttunen and S. Peters, "Conversational Implicature" in C. Oh and D.A. Dinneen (eds.), *Syntax and Semantics,* 11: Pressupposition, New York: Academic Press, 1979, pp. 1-56. and see also: R. Walker, "Conversational Implicature" in Simon Blackburn (ed.), *Meaning, Reference, and Necessity: New Studies in Semantics,* Cambridge: Cambridge University Press, pp. 133-181 and K. Bach, "Conversational Implicatur", *Mind and Language,* 9, 1994, pp. 124-161.

88 - P.F. Strawson, *Logico-Linguistic* Papers, p. 27.

انظر المناقشة التفصيلية لنظرية الأوصاف واعتراضات ستراوسون عليها د. محمد مهران، فلسفة برتراند رسل، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦، ص٢٧٨ وما بعدها.

89 - Stephen Neale, "Paul Grice and the philosophy of Language" p. 514; and see also: "Some Remarks about Grice's View about the Logical particles of Natural Language" in Y. Bar-Hillel 9eds.). *Pragmatics of natural languages,* Dordrecht: D. Reidel, 1971, pp. 50-68.

90 - Paul Grice, *Studies in the Way of Words,* p. 23.

91 - Ibid, pp. 23-24.

92 - Ibid, p. 24.

93 - Ibid, p. 26.

قدم جرايس عمله في الاقتضاء التخاطبي بصورة علنية للجمهور في المحاضرات المعروفة باسم محاضرات وليم جيمس في جامعة هارفارد في

عام ١٩٦٧ تحت عنوان «المنطق والتخاطب»، ولكنه لم ينشر بصورة كاملة حتى ظهر في

P. Cole and J. Morgan (eds.), *Syntax and Semantics, vol. 3: Speech Acts,* New York: Academic Press, pp. 41-58.

ثم أتبعه بـ «ملاحظات إضافية على المنطق والتخاطب» عام ١٩٧٨.

94 - Ibid, p. 47.

95 - Wayne A. Davis, *Implicature: Intention, Convention and Principle in the Failure of Gricean Theory,* Cambridge University Press, 1998, p. 19.

96 - Charles Travis, "On What is Strictly Speaking True" *Canadian Journal of Philosophy,* 1985, 15, pp. 187-229. And see also P. Hugly and C. Sayward "A Problem about Conversational Implicature", *Linguistics and Philosophy,* 3, 1979, pp. 19-25; and Kent Bach, "The Myth of Conventional Implicature", *Linguistics and Philosophy,* 22, 1999, pp. 327-366; and K. Sterelny, "Against Conversational Implicature", *Journal of Semantics,* 1, 1982, p. 187.

97 - Francois Recanati, "Pragmatics" in Edward Craig (General editor), *Routledge Encyclopedia of Philosophy,* Vol. 7, p. 627.

98 - Yehoshua Bar-Hillel, "Out of the Pragmatic Wast-basket," *Linguistic Inquiry,* 2, 1971, pp. 401-407.

99 - Jacob L. Mey, *Pragmatics: An Introduction,* Oxford, UK&Cambridge, USA: Blackwell, 1998, p. 12.

100- John R. Searle, "Contemporary Philosophy in the United States" pp. 17-18. And see also John R. Searle, *Expression and Meaning; Studies in the Theory of Speech Acts,* Cambridge: Cambridge University Press, 1979, pp. 46-47.

101- Gilbert Harman, *Reasoning, Meaning and Mind,* Oxford: Clarendon press, 1999, pp. 207-208.

102- William G. Lycan, *Philosophy of Language: A Contemporary Introduction,* London and New York: Routledge, 2000, p. 131.

103- Stephen Schiffer, "Intention - Based Semantics" Notre Dame *Journal of Formal Logic,* Vol. 23, 1982, pp. 127-128.

104- Brain Loar, "Two Theories of Meaning" in Gareth Evans and John McDowell (eds.), *Truth and Meaning: Essays on semantics,* p. 149.

105- Jonathan Bennett, "How do Gestures Succeed?" in Ernest Leopore and Robert van Gulick (eds.), *John Searle and His Critics,* Oxford, UK & Cambridge, USA: Blackwell, 1995, p. 3.

المصادر والمراجع

أولاً - مؤلفات جرايس:

1- Grice, H.P. and P.F. Strawson (1956). "In Defence of a Dogma", *Philosophical Review,* 65, pp. 141-158.

2- Grice, H.P. (1969). "Vacuous Names" in D. Davidson and J. Hintikka (eds.), *Words and Objections,* Dordecht: Reidel, pp. 118-145.

3- Grice, Paul (1970). "Lectures on Language and Reality" delivered at University of Illinois, Urbana, Illinois, unpublished archives University of California, Berkeley CA. (Lecture IV, "Presupposition and Conversational Implicature" published in *Studies in The Way of Words.*

4- .....(1971). "Intention and Uncertainly," *Proceedings of the British Academy* 57, pp. 263-279.

5- .... (1986). "Reply to Richards" in R.E. Grandy and R. Warner (eds.), Philosophical Grounds of Rationality: *Intention Categories, Ends,* Oxford: Clarendon Press, pp. 45-108.

6- .... (1989). *Studies in the Way of Words,* Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press, fourth printing 1995.

7- .... (1991). *The Conception of Value,* Oxford: Clarendon Press.

8- .... (2001). *Aspects of Reason.* edited with an introduction by Richard Warner, Oxford University Press.

ثانياً - كتابات عن جرايس ونظرية المعنى:

9- Avarmides, Anita (1989). *Meaning and Mind: An Examination of a Gricean Account of Language,* Cambridge, Massachusetts: the MIT Press.

10- .... (1999). "Intention and Convention" in Bob Hale and Crispin Wright (eds.), *A Companion to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers, pp. 60-86.

11- Austin, J.L. (1970). *How To Do Things With Words,* edited by J.O. Urmson, New york: Oxford University Press.

12- Bach, Kent (1994). "Conversation of Implicature", *Mind and Language,* 9, pp. 124-161.

13- .... (1999). "The Myth of Conventional Implicature" *Linguistics and Philosophy,* 22, pp. 327-366.

14- .... (1999). "Grice, H. Paul" *The MIT Encyclopedia of the Cognitive Sciences,* edited by Robert A. Wilson, and Frank C. Keil, pp. 359-360.

15- Baker, Jidith (1998). "Grice, Herbert Paul" in Craig, Edward (General editor), *Routledge Encyclopedia of Philosophy,* London and New York: Routledge, Vol. 4, First published, pp. 172-177.

16- Bar-Hillel, Yehoshua (1971). "Out of the Pragmatic Waste-basket" *Linguistic Inquiry*, 2, pp. 401-407.

17- Bennett, Jonathan (1971). "Out of the Pragmatix Wast-basket". *Linguistic Inquiry*, 2, pp. 401-407.

18- .... (1995). "How do Gestures Succeed?" in Ernest Lepore and Robert van Gulick (eds.), *John Searle and His Critics,* Oxford, UK & Cambridge, USA: Blackwell, pp. 3-15.

19- Berlin, Isaiah (1998). *The Proper Study of Mankind, An Anthology of Essays,* edited by Henry hardy and Roger Hausheer, New York: Farrar, Straus and Giroux.

20- Blackburn, Simon (1998). Communication and Intention" in Carig Edward (General editor), *Routledge encyclopedia of Philosophy,* Vol. 2, London and New York: Routledge, pp. 455-459.

21- Carnap, Rudolph (1942). *Introduction to Semantics,* Cambridge, Mass: Harvard University Press.

22- Chomsky, Noam (1980). *Rules and Representations,* New York: Columbia University Press.

23- Cohen, L.J. (1917). Some Remarks about Grices View about the Logical Particles of Natural Language, in Y. Bar-Hillel (eds.), *Programatics of Natural Languages,* Dordrecht: D. Reidel, 1971, pp. 50-68.

24- Davidson, Donald (1984). *Inquiries into Truth and Interpretation,* Oxford: Clarendon Press.

25- Davidson, Donald (2001). *Subjective, Intersubjective, Objective,* Oxford: Clarendon Press.

26- Davis. Martom (1996). "Philosophy of Language" in Nicholas

Bunnin and E.P.Tsui-James (eds.), *The Blackwell Companion to Philosophy,* Oxford: Blackwell, first published, pp. 90-139.

27- Davis, Wayne A. (1998). *Implicature: Intention, Convention and Principle in the Failure of Gricean Theory,* Cambridge University Press.

28- Dummett, Michael (1994). "Dummett's Replies" in B. Mcguinness and G. Olivieri (eds.), *The Philosophy of Michael Dummett,* pp. 299-369.

29- Evans, Gareth and John McDowell (eds.) (1977). *Truth and Meaning: Essays in semantics,* Oxford: Clarendon Press.

30- Fogelin, Robert J (1991). "*Review of Studies in the Way of Words*" *The Journal of Philosophy,* pp. 213-219.

31- Frege, Gottlob (1980). *Translations From the Philosophical Writings of Gottlob Frege,* edited by P. Geach and M. Black, 3rd ed., Oxford: Basil Blackwell.

32- Gamut, I.T.F. (1991). *Logic, Language, and Meaning. Vol. 1: Introduction to Logic,* Chicago and London: The University of Chicago Press.

33- Hale, Bob and Crispin Wright (eds.) (1999). *A Companion to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers.

34- Hahn, Lewis Edwin (ed.) (1998). *The Philosophy of Strawson* (The Library of Living Philosophers, Vol. XXVI), Chicago and Lasale, Illinois: Open Court, first printing.

35- Hanfling, O. (1989). "Theories of Meaning: From Reference to Use" in G.H.R. Parkinson (General editor), *An Encyclopedia of Philosophy,* Routledge, pp. 24-49.

36- Harman, gilbert (1999). *Reasoning, Meaning and Mind,* Oxford: Clarendon Press.

37- Hugly, P. and C. Sayward (1979). "A Problem about Conversational Implicature" *Linguistics and Philosophy,* 3, pp. 19-25.

38- Husserl, Edmund (1970). *Logical Investigations,* Vol. 1, translated by J.N. Findlay, London: Routledge & Kegan Paul.

39- Leech, Geoffrey N. and Jennifer Thomas (1988). *Pragmatics: The State of the Art*, Lancaster University.

40- Lewis, David (1969). *Convention: A Philosophical Study,* Cambridge, Massachusetts: Harvard University Press.

41- Loar, Brian (1977). "Two Theories of Meaning" in Gareth Evans and John McDowell (eds), *Truth and Meaning: Essays in Semantics,* pp. 138-161.

42- Lycan, William G. (1995). "Philosophy of Language" in Robert Audi, (General editor) *The Cambridge Dictionary of Philosophy,* Cambridge University Press, pp. 586-589.

43- .... (2000). *Philosophy of Language: A Contemporary Introduction,* London and New York: Routledge.

44- Mackay, Alfred F. (1972). "Professor Grice's Theory of Meaning" *Mind,* Vol. LXXXI, No. 321 January, pp. 57-66.

45- McGuinness, B. and G. Golivieri (eds.) (1994). *The Philosophy of Michael Dummett,* Dordrecht: Kluwer Academic Publishers.

46- Mey, Jacob L. (1998). *Pragmatics: An Introduction,* Oxford, UK & Cambridgte USA: Blackwell.

47- Miller, Alexander (1998). *Philosophy of Language,* Montreal & Kingston, London: McGill-Queen's University Press.

48- Morris, Charles (1971). "Foundations of the Theory of Signs" in *Writings on the General Theory of Signs,* the Hague: Mouton, pp. 141-166.

49- Noonan, Harold W. (2001). Frege: *A Critical Introduction,* UK: Polity.

50- Neale, Stephen (1992). "Paul Grice and the Philosophy of Language", *Linguistics and Philosophy,* 15, pp. 509-559.

51- Peirce, C.S. (1931-1958). *Collected Papers of Charles Sanders Peirce,* Vol. 4, edited by Charles Hartshorne and Paul Weiss, Cambridge: Harvard University Press.

52- Peter, Simons (1996). "Meaning and Language" in Barry Smith, and David W. Smith (eds.), *The Cambridge Companion to Husserl,* Cambridge University Press, pp. 106-137.

53- Platts, Mark de Bretton (1979). *Ways of Meaning: An Introduction to a Philosophy of Language,* London, Boston and Henley: Routledge & Kegan Paul.

54- Recanati, Francois (1998). "Pragmatics" in Edward Craig, (General editor), *Routledge Enclyclopedia of Philosophy,* Vol. 7, London and New York: Routledge, pp. 620-633.

55- Schiffer, Stephen (1972). *Meaning,* Oxford: Clarendon Press.

56- ... (1982). "Intention - Based Semantics", *Notre Dame Journal of Formal Logic,* Vol. 23, pp. 119-156.

57- ... (1989). *Remnants of Meaning,* Cambridge, Massachusetts: MIT press.

58- Searle, John R. (1965)." What is a speech-act" in Max Black, (ed,), *Philosophy in America,* Ithaca. NY: Cornell University & London: George Allen and Unwin, pp. 221-239.

59- .... (1970). *Speech Acts,* Cambridge University Press.

60- .... (1971). "Introduction" to *The Philosophy of Language, London:* Oxford University Press, pp. 1-12.

61- ... (1979) *Expression and Meaning*: Studies in the Theory of Speech Acts, Cambridge: Cambridge University Press.

62- ... (1986)." Meaning, Communication, and Representation" in R Grandy and R. Warner (eds.), *Philosophical Grounds of Rationality: Intentions, Categories, Ends,* pp. 209-226.

63- ... (1996). "Contemporary Philosophy in the United States" in Bunnin, Nicholas and E.P. Tsui-James (eds.), *The Blackwell Companion to Philosophy,* Oxford, Blackwell, pp. 1-24.

64- ... (1999). *Mind, Language and Society: Philosophy in the Real World,* New York: Basic Books.

65- ... (2002). *Consciousness and Language,* Cambridge University Press.

66- Smith, N. (ed.) (1982). *Mutual of Knowledge*, New York: Academic Press.

67- Sperber, Dan and Deirdre Wilson (2002). "Pragmatics, Modularity and Mind - reading" *Mind & Language,* Vol. 17, Nos. 1 and 2, February/April, pp. 3-23.

68- Stevenson, C.L. (1944). *Ethics and Language,* New Haven: Yale University Press.

69- Strawson, P.F. (1971). *Logico-Linguistic Papers,* London: Methuen & Co Ltd.

70- ..... (1998). "Intellectual Autobiography" in Hahn, Lewis Edwin (ed,), *The Philosophy of Strawson,* pp. 3-21.

71- .... (2000). *Entity and Identity and Other Essays,* Oxford: Clarendon Press.

72- Suppes. P. (1968). "The Primacy of utterer's Meaning" in R. Grandy and R. Warner (eds.), *Philosophical Grounds of Rationality: Intentions,* Categories, Ends, Oxford: Clarendon Press, pp. 109-129.

73- Taylor, Kennety (1998). *Truth and Meaning: An Introduction to the Philosophy of Language,* Blackwell Publishers.

74- Travis, Charles (1985). "On What is Strictly Speaking True" *Canadian Journal of Philosophy,* 15, pp. 187-229.

75- Warner, Richard (2001). "Introduction: Grice on Reasons and Rationality" in Paul Grice, *Aspects of Reason,* Oxford University Press, pp. I-XXXIII.

٧٦ – ابن جني، أبو الفتح عثمان. الخصائص، الجزء الأول، تحقيق محمد علي النجار، الطبعة الثالثة، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٨٦.

٧٧ – إسماعيل، صلاح. التحليل اللغوي عند مدرسة أكسفورد، الطبعة الأولى، بيروت: دار التنوير للطباعة والنشر، ١٩٩٣.

٧٨ – إسماعيل، صلاح. فلسفة اللغة والمنطق: دراسة في فلسفة كواين، الطبعة الأولى، القاهرة: دار المعارف، ١٩٩٥.

٧٩ – أفلاطون. محاورة كراتيليوس، ترجمة وتقديم د. عزمي طه السيد، الطبعة الأولى، عمان، الأردن: وزارة الثقافة، ١٩٩٥.

٨٠ – فاخوري، عادل. «الاقتضاد في التداول اللساني»، عالم الفكر، الكويت، ١٩٨٩، ص١٤١–١٦٦.

٨١ – مهران، محمد. فلسفة برتراندرسل، الطبعة الثالثة، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٦.

ثالثاً – القواميس والموسوعات الفلسفية:

82- Audi, Robert (General editor) (1999). *The Cambridge Dictionary of Philosophy,* 2ed, Cambridge University Press.

83- Blackburn, Simon, (1996). *Oxford Dictionary of Philosophy,* Oxford and New York: Oxford University Press.

84- Borchert, Donald M (editor in Chief) (1996). *The Encyclopedia of Philosophy,* Supplement, New York: Macmillan reference ASU.

85- Bunge, Mario Augsto (2003). *Philosophical Dictionary,* Promethus Books.

86- Craig, Edward (General editor) (1998). *Routledge Encyclopedia of Philosophy,* London and New york: Routledge, 10- Volume.

87- Flew, Antony (ed.) (1999). *A Dictionary of Philosophy,* St. Martin's Press.

88- Honderich, Ted (ed.) (1995) *The Oxford Companion To Philosophy,* Oxford and New York: Oxford University Press.

89- Lamarque, Peter V. and R.E. Asher (eds.) (1997). *Concise Encyclopedia of Philosophy of Language,* Pergamon.

90- Mautner, Thomas (1995). *A Dictionary of Philosophy,* Oxford: Blackwell Publisher.

91- ...... (ed.) (1997). *Penguin Dictionary of philosophy,* London, UK: Penguin Book Ltd.

92- Martin, Robert (1998). *The Philosopher's Dictionary,* Second edition, Broadview Press.

93- Runes Dagobert D (ed.) (2002). *A Dictionary of Philosophy,* Kensington Publishing Corporation.

94- Urmson, J.O. and Jonthan Ree (eds.) (1993). *The Concise Enclyopedia of Western Philosophy and Philosophers,* New edition, London and New York: Routledge.

95- Wilson, Robert A and Frank C. Keil (eds.) (1999) *The MIT Enclyclopedia of The Cognitive Sciences,* Cambridge, Massachusetts & London, England: MIT Press.

Grice's Intentionalistic Theory of Meaning

Abstract

Philosophical inquiry on the problem of meaning is as old as philosophy. There are two approaches to the study of meaning. The first is associated with formal theories of meaning, proposed by Frege, earlier Wittgenstein, quine, Davidson and Dummett. The second is associated wiht use theories of meaning, which was supported by later Wittgenstein, Austin, Grice, Strawson and Searle. Formal theories are concerned with the formal structure of language and the interrelations between sentences. The use theories put central emphasis on speakers and what they do in their account of meaning. Paul H. Grice (1913-1988) - English philospher-gives central place to speakers and their intentions when accounting for meaning. The Gricean intentionalistic theory of meaning can be regarded as having two stages. The first aims to analyze a concept of speaker's meaning. The second aims to use the concept of speaker's meaning, along with the notion of a convention, as the foundation of theory of linguistic meaning.

This paper seeks to achieve the following aims:

1- Providing a critical examination of Grice's theory.

2- Discussing the most important objections to this theory and modifications which have been suggested by philosophers wishing to refine it, such as Strawson, Searle and others.

3- Forging important connections between intentionalist theory (in semantics) and theory of conversational implicature (in pragmatics). In my mind, the two theories are supportive and the first serves as a foundation for the second.